الوداع

رسالة إلى أهل طبرستان

للإمام الناصر لدين الله أحمد بن الهادي عليه السلام



جمال الشامي

١٤٣٨هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

"وأنا أُشهد الله ذا الكبرياء لوددت أني اجد إلى حيلة سبيلاً يعز فيها الدين، ويصلح على يدي أمر هذه الأمة، وإني أجوع يوماً، وأطعم يوماً حتى تنقضي أيامي وألاقي حمامي، فذلك أعظم سرور وأجل حبور وأشرف الأمور"(1).

الإمام الناصر لدين الله أحمد

(1) ص٣٠.

المقدمــــة

الحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

وبعد:

هذه رسالة (الوداع) إلى أهل طبرستان وهي آخر الرسائل الموجهة إليهم كما يبدو، وبها قطعت العلاقة الوثيقة بينهما لأمور رآها الإمام منهم خلاف ما كان معلوماً من سيرهم مع الأئمة، وكان الإمام الناصر قد وجه إليهم رسالة يستدعيهم للنصرة بالأنفس والأموال، ولا قت الرسالة قبولاً، وقدم لأجلها الكثير من الأنصار إلى اليمن ولما أن وصلوا إلى الإمام وبدأ الإمام ببناء الدولة ومحاربة الفساد القائم وجد الإمام منهم تصرفات تتعارض مع التدين الذي كانوا عليه والتقوى وهي عدم التقيد بالقانون (الكتاب والسنة)، فأغضب الإمام ذلك كثيراً لصدوره من أناس كانوا من أجلّ الشيعة وأنصار الشريعة لعقود من الزمن، ورجع منهم أناس وتثاقل آخرون، فكتب إليهم الإمام هذا الكتاب وجعله حجة بالغة عليهم أمام الله وأمام أنفسهم، وزجرهم وهددهم بقطع العلاقة معهم، ويأتي السؤال التالي: هل من السياسة تصرف الإمام الناصر تجاههم من ذمهم وقطع العلاقة معهم وهو في ظل حرب مع الأعداء وبإمكانه الاستفادة منهم في القتال معه من خلال تجاوز القانون؟

الجواب في ذلك على مسألتين:

المسألة الأولى: طبيعة العلاقة بين الجيش والإمام، العلاقة بينهما وفقاً لنظرية الإمامة الزيدية دينية لا شخصية ولا نفعية، فما يقوم به الجيش ما هو إلا الجهاد المفروض عليهم باعتبار الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقيادة الإمام كونه نائب عن الأمة في تطبيق ذلك، وقد أكد ذلك الإمام الناصر في هذه الرسالة في معرض الذم لمن تصور نفعية العلاقة بينهما إذ قال: «فصاروا يمنون علينا الهجرة إلينا، ويجعلون جهادهم لنا دون الله عز

وجل، ويطلبون الأجرة في ذلك منا»[1]، إذاً فالعلاقة دينية مغايرة لعلاقة الجيوش بالحكام في كل الأزمان من تبادل المصالح بين المقاتلين والحاكم فلا وجود لقانون يمنع الكل ولا قيم أو مبادئ يقاتل لأجلها بل لم يقتل المقاتل إلا لأجل المنفعة الشخصية فالارتزاق هو القائم بينهما وما أكثره اليوم.

المسألة الثانية: طبيعة العلاقة بين الإمام والقانون (الكتاب والسنة)، العلاقة بينهما علاقة اتباعية تطبيقية لا ابتداعية تمردية، ف«ليس للأئمة القائمين بهذا التكليف غير الوقوف عليها – أي أحكام الشرع – دون التعدي عنه»[2] كما يقول ابن أبي الرجال، ويقول الإمام الهادي: «يجوز للإمام ما جوز الله له من الفعل ويحرم عليه ما حرم الله في كتابه من العمل»[3]، ويقول الإمام المرتضى: و«الأئمة متبعة لا مبتدعة، محتذية لا مخترعة في نفوسها، ولا متقحمة بذلك على خالقها»[4]، ولا يجوز للإمام الخروج عن القانون بأي حال ولو أدى الأمر إلى انهيار الدولة، يقول الإمام عزالدين بن الحسن: «لو فرض أنه لم يتهيأ له استقامة حاله، وانتظام أمره، إلا بخروجه عن القانون الشرعي، وبسلوكه السبيل غير المرضي، واعتلاقه بما يؤثمه من التصرفات، وإن كان في خلال قائماً بالأمور المهمات، ومحصلاً للمصالح الدينيات، فإنه لا يلزمه أن يتعرض للإثم، ويضر نفسه لينفع غيره، فإن نظره لنفسه أولى به وأوجب عليه، ولا ينبغي أن يكون كذبالة يضيئ للناس وهو يحترق»[5]، وقد أكد على ذلك الإمام الناصر في رسالته إذ قال: «لا يراني الله سبحانه حيث يكره، أصلح دنياي بخراب

---

(١) ص٣٨.

(٢) رسالة في الإمامة خ.

(٣) الأحكام في الحلال والحرام ج٢ص٣٩١.

(٤) مجموع الإمام المرتضى ج١ص٣٩٦.

(٥) العناية التامة ص١٦٣..

آخرتي، وأسعى في مراد الأدميين بمعصية خالقي، وأنقطع عن إدخار الباقي بما يزول عني، فأكون كالسراج يحرق نفسه ويضيء لغيره»[١].

فمن كان مقيداً بقواعد الشريعة مدفوعاً إلى اتباعها، ورافضاً ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير وشراء الذمم إذا لم يكن للشرع موافقاً، لا يقال عنه مقصراً في السياسة بخلاف من لا قيد له ولا شرط إنما يجري حيث جرى الهوى، وأيضاً لم تكن طريقة الأئمة كغيرهم من الحكام، فكانوا يطبقوا أمور الدنيا على أمور الدين، ويسوقون الكل مساقا واحدا، ولا يضعوا ولا يرفعوا إلا بالكتاب والنص[٢]، فاختلفت طريقتاهما في السياسة فعانت الأئمة من الأتباع ما لم يعاني غيرهم بل الإمام الناصر على خلاف الأصل والمشهور من سير الحكام أن الشعوب تشكوهم إلى الله لا أن يشكوا الحكام الشعوب إلى الله كما في الرسالة «فإلى الله اشكوا بإخواننا ما امتحنت به من فقدان الأخيار والقلة من أهل الدين، فأنا غريب مضطهد بين غضبان ...»[٣]، «فإلى الله تبارك وتعالى نشكوا قلة المؤمنين، وظهور الظالمين، وعبادة الناس للدنيا، فابغض الناس إليهم من خالف هواهم أو قصر في إعطائهم من الدنيا، فقد اصبحت بحمد الله مناصباً في الله معاداً في طاعته...»[٤].

فالرسالة (الوداع) قيمة للغاية وقد احتوت على كثير من الفوائد من أصول الدين وفروعه والسياسة والاجتماع والتاريخ والبلاغة والحكم، مما يجعلها مرجع في كل ذلك، ولأجله كان نشرها، نرجو الاستفادة منها نظرياً وعملياً ففيها رفعة للأمة وصلاح لها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

١٤ ربيع الأول سنة ١٤٣٨هـ.

١٣ / ١٢ / ٢٠١٦م.

---

(١) ص٣١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١٠ص٢١٢.

(٣) ص٣٣.

(٤) ص٣٣.

التعريف بالمؤلف

هو أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن الإمام إبراهيم بن الإمام الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، الناصر لدين الله، أبو الحسن[1].

أمه: فاطمة بنت الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[2].

مولده: ولد بعد ميلاد أخيه المرتضى ولم أقف على سنة معينة، "ونشأ على الزهادة، وتربى على النسك والعبادة، حتى كان ذلك له ديدناً وعادة، واقتبس من نور والده الوَّقاد، وكرع في علم السلف والأجداد، حتى ارتوى من معين علمهم، واستمطر ربابات فهمهم، فله التصانيف المفيدة، والكتب العتيدة، وهي مشهورة، وفي الكتب مذكورة"[3].

مكانته: يعد الإمام الناصر من أعلام الفكر الإسلامي وله أثر في علم الكلام والفقه والحديث والتفسير ظهر ذلك جلياً في مصنفاته والتي افاضت في كل باب هي فيه، واصبحت مرجعاً هاماً في الأصول والفروع، ويعتبر الإمام الناصر ثالث إمام جامع للشروط المعتبرة يتولى السلطة السياسية في دولة اليمن، ويعتبر الإمام الناصر من أئمة الزيدية المعتبرين وله مكانة رفيعة في المذهب أصولاً وفروعاً.

---

(١) الإفادة في تاريخ أئمة الزيدية ص١٧١.

(٢) الشجرة المباركة ص٢٥.

(٣) مآثر الأبرار.

آثاره الفكرية: خلف تراثاً جليلاً كلامياً وفقهياً وحديثياً على منوال أبيه في أصالة الحجج والبيان ومن ذلك:

كتاب التوحيد في نهاية البيان والتهذيب، وكتاب النجاة ثلاثة عشر جزءاً، وكتاب مسائل الطبريين جزآن في الفقه، وكتاب علوم القرآن، وأربعة أجزاء في الفقه، وكتاب التنبيه، وكتاب أجاب به الخوارج الإباضية، وكتاب الدامغ أربعة أجزاء[١]، ورسائل إلى طبرستان، والتعزية للإمام المرتضى، والموجز في فقه الإمام القاسم الرسي[٢].

وفاته: بعد حياة مليئة بالجهاد والاجتهاد توفاه الله تعالى سنة ٣١٥هـ، ودفن بصعدة حرسها اللّه إلى جنب أبيه وأخيه[٣].

---

(١) التحف شرح الزلف ص١٩٧.

(٢) تم العثور عليها بحمد الله مؤخراً.

(٣) الإفادة في تاريخ أئمة الزيدية ص١٧٢.

وصف المخطوط

تقع الرسالة ضمن مجموع مخطوط في (٣٠٩) صورة وتأتي بعد كتاب الموجز وعليه تمليك ليحيى الحسين بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن يوسف اليحيري المسمري.

قال ابن أبي الرجال عن آل اليحيري وعن مالك المخطوط: "جماعة أجلاء علماء، بحار متكلمون، نحاة لغويون، يعرفون الهندسيات والاقليدسات، وأنواع العلوم الإسلامية، ولهم في النظم والنثر كل سابقة أولى، وكل سهم أعلى، فمنهم الثلاثة الأخوة يحيى والحسن والحسين بنو عبد الله بن أحمد بن محمد بن يوسف بن شعثم اليحيري المسمري، وفيهم المتقدم الزمان كيحيى، والمتأخر العمر كالحسين، وللحسين ولد علامة بارع في فنون الأدب، مفخراً لأهل اليمن اسمه يحيى بن الحسين بن عبد الله بن أحمد، وهو شارح المكنون كتاب القاسم بن إبراهيم عليهم السلام، وفاته سابع شهر رمضان الكريم سنة سبع وسبعين وخمسمائة، قال بعض السادة آل الوزير: غالب الظن أنهم في نيف وعشرين وخمسمائة، وليحيى بن عبد الله أكبر الثلاثة الإخوة ولد اسمه سليمان بن يحيى بن عبد الله علامة شهير، فصيح بليغ"(١).

لم يدون على المخطوط ناسخه ولا تاريخ النسخ إلا انه من المحتمل أن يكون نسخ في القرن الرابع، وبعض مواصفات المخطوط كما يلي:

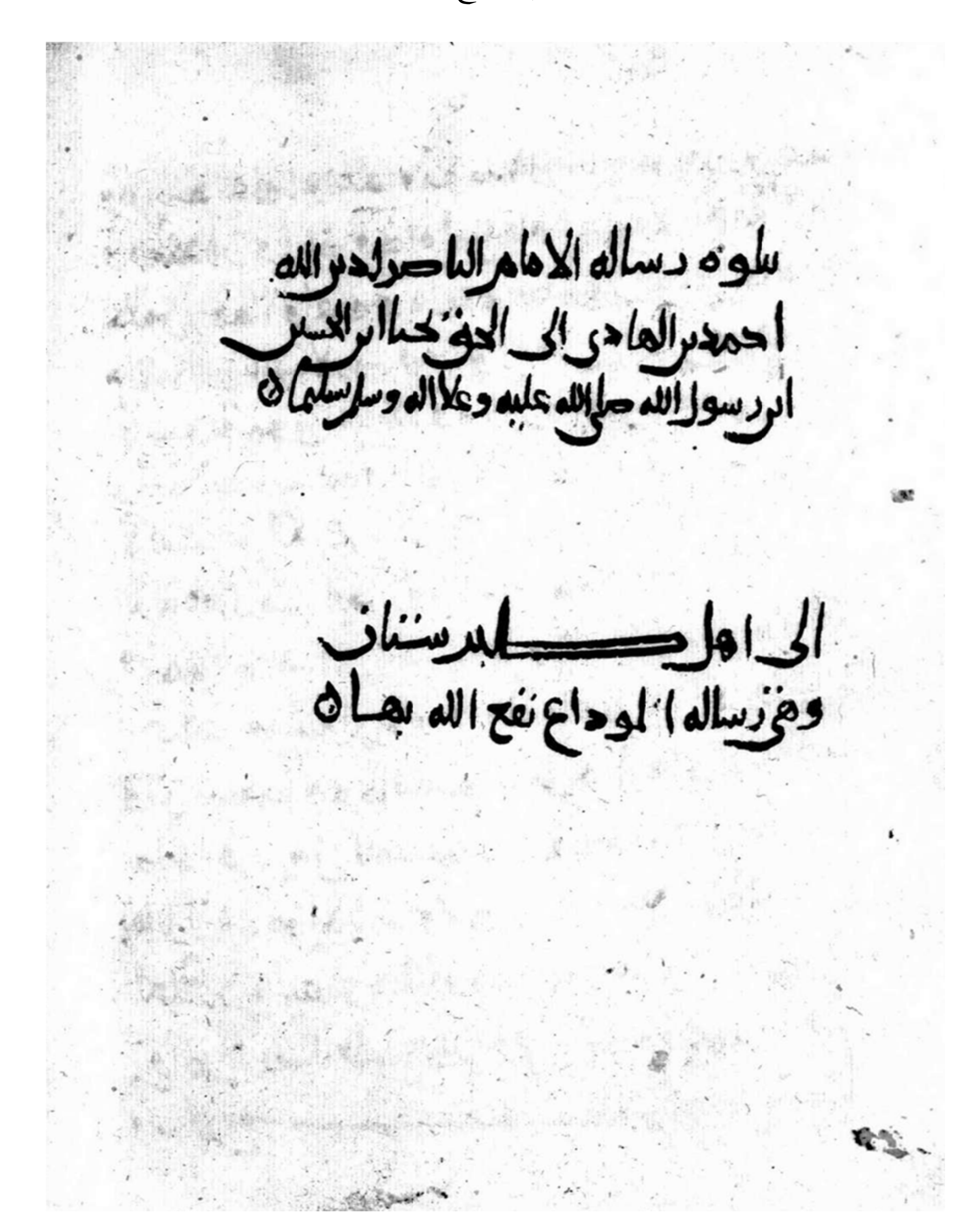
- العنوان: (رسالة الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسلياً إلى أهل طبرستان وهي رسالة الوداع).
- أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواحد القديم العلي العظيم".
- آخره: "أو تكيف من الأعراض والأجرام سبحانك لا إله إلا أنت تعاليت".
- عدد الأوراق: ٩٣ ورقة.
- مقاس الورقة: ٢٦,٥ × ٢١,٠ سم.

---

(١) مطلع البدور ومجمع البحور ج٤ص٣٦٣.

- عدد السطور: ١٥- ١٨ سطراً.

- المصدر: مكتبة (بافاريا) الألمانية في ميونخ.



نسخه رساله الامام الناصر لدين الله
احمد بن الهادي الى الحق يحيى بن الحسين
ابن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما

الى اهل طبرستان
وهي رساله الوداع نفع الله بها

نموذج من البداية

وبعلني معبدا وبوحدتي مخلصا وبعزوانى مقرا و
بستشهدا وبي مقرا مستدلا وبعبادة الجد على مستعيدا
وباحداني مجمزعا وباحراجي من العدم مستدعا انك انت
الله الذي لا اله الا انت الذي قبل الاشيا والاخر بعد
فنا الاشيا الغني عما خلقت والوارث لما احدثت
والعدل فيما حكمت والصادق فيما وعدت والرؤوف
بمن ملكت ليس كمثلك رب يعبد ولا مقصود اليه
بصمد ولا شبيه يوجد تعددت عن مساواه المخلوقين
فنت و جللت عن صفة الواصفين وعظمت وانطرت
الراجعين اليك فلمت لم تولد فتحدث ولم تلد فتورث
عوزت عن درك المستعرات فلم تتطرق الاوقات
ولم تلزمك الجهات ولم تجر عليك الساعات فانت الله
بخلاف ما تقع عليه الاوهام او تتمثل من الاجسام او
تكيف من الاعراض والاجرام سبحانك لا اله الا انت
تعاليت ٥

نموذج من النهاية

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

[باب التوحيد]

الحمد لله الواحد القديم، العلي العظيم، الحي القيوم، العالم الذي لا بعلم هو غيره فيجهل، والقادر الذي لا بقدرة هي غيره فيتضائل، الذي ليس له أول فيتجزأ، ولا غاية فيقضى، ولا حد فيرى، ولا مثل فيوازى، ولا ضد فينافره، ولا شكل فيظاهره، ولا شريك فيشاوره، ولا غالب فيكابره، ولا ند فيكاثره.

الذي لم يحلل في الأشياء فيكمن، ولم ينأ عنها فيظعن، ولم يمازجها فيتكون، ولم يستنفذ بها فيتبين، ولم تحوه فيعب، ولم تلزمه الحاجة إليها فيأوب، ولم يشبهما فيحول، ولم يشارك صفاتها فيزول، ولم يدرك بالحواس فيكون عرضا أو جسما؛ إذ لا يلحق المصنوعات إلا مصنوعاً، ولا تشاهد إلا محدثاً، ولا تشير إلا إلى محدود، ولا تنسب إلا إلى معدود.

فتبارك الله رب العالمين، ذو الطول الأسد، والسبيل الأقصد، والحق الأرشد، والثناء الأمجد، والملك الذي لا ينفد، والصنع الذي لا يفسد، والحجج التي لا تدحض، والإبرام الذي لا ينقض، والعطايا التي لا [ترض](١)، الذي اخترع الأشياء لا على مثال، وابتدع البرايا بلا احتيال، وكونها لما أراد من الأعمال لا لتكثير بعد اقلال، ولا خوف [بأنبه](٢) ذي اعتيال، ولا خشية لنقص ولا زوال، جعلها عليه دليلاً ووسمها بأثر صنعه بدليلاً وأعطاها للاستدلال سبيلاً، اتقنها صنعاً واحسنها قدراً واحاط بها خبرا، فلم يعزب عنه خفي معنها ولا تصاريف تقلبها ولا مراد ناطقها، ولا همس لاحقها، ولا انكمان عاريها، ولا سروح ساريها، ولا غيبة ذاهبها، ولا رجع جفونها، ولا لحظ عيونها، ولا خواطر ظنونها، ولا حريز مكنونها، ولا موضع سكونها، ولا سقوط ورقة ولا حبة، ولا هباة ولا ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ولو كانت تحت أذي زواخرها وظُلم عوامرها أو وسط صخورها أو فوق ذُرى شناخيها، ونايف سهولها، وقداميم رعانها، ومناكب اركانها، سبحانه ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**

---

(١) كذا.

(٢) لعلها كذا.

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤]، يقول تبارك وتعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾**[الأنعام:٥٩].

إذ هو عز وجل وتبارك وتعالى الأشد بطشا، والأعظم عرشا، والغني عما أنشا، والفاتق للنهار إذا فشا، والليل إذا يغشا، والأقوى سلطانا، والأجل شانا، والأوضح برهانا، والأشفى بيانا، والأعلى مكانا، الذي بوحدانيته دام الدوام، وبقدرته عرف الخلف والأمام، والحدود والأقطار، والظلم والأنوار، العلي عن شبه ما اخترع، والمتنزه عن مقايسة ما ابتدع، والمتقدس عن مضاهاة ما صنع، الباني لخلقه على بنية لا تجاريه، والفاطر لهم على فطرة لا تدانيه، حال بين الحواس الخمس وبين دركه، وحال بين الفطن الثاقبة وبين الدنو إلى تكييفه، وحال بين الأفكار المدققة والأذهان الصافية والخواطر المتغلغة وبين الوقوف على معنى يدل على تحديد أو اشارة إلى غامض تمثيل أو اكتناه تسموا إليه العقول.

هيهات عجز عن ذلك عميقات بحار النظر، وانحسر دونه ترصف مهذبات الألباب، جلَّ إلهنا فلا عين تراه، ولا أذن تسمعه، ولا حاسة تدركه، ولا غوص فاحص يقاربه، ولا جولان فكر مميز يحيط به، هو عز وتعالى يمنة لكل يمنة، ويسرة لكل يسرة، وقدام لكل قدام، وخلف لكل خلف، وفوق لكل فوق، المحيط بكل تحت، لا يخلوا منه مكان، ولا يلهيه شأن عن شأن، يحوي الأشياء كلها ولا تحويه، وليس شيء منها جميعاً على حقيقة ولا مجاز يساويه ولا يشبهه ولا يساميه في دنيا فانية ولا آخرة باقية.

[الحمد لله(١)] الغني عن الأشياء قبل إحداثها، والوارث لها بعد وراثها؛ إذ لا يكون الغني محتاجاً والمخترع مفتقراً إلى الاستعانة بما خلق أو الحلول فيما فتق أو الرغبة فيما رزق أو الفاقة إلى ما حقق في بدؤ أو معاد أو رشد أو فساد، تعظم وتقدس وجلَّ عن قول أهل الإلحاد، وتبارك وتعالى وتنزه عن تشبيه أهل العناد، ذو السطوة القاهرة، والدلائل الباهرة،

(١) مضافة على الأصل.

والآيات الزاهرة، والأعلام الظاهرة، والحجج السائرة، والنعم الغامرة، تفرد بالوحدانية، وتعزز بالجبرية، واحتجب بالإلهية، فلا قرار يقله، ولا سقف يظله، ولا قطر يشتمل عليه، ولا حجاب يستره، ولا حد يحويه، ولا مكان يليق به، ولا نهاية يوقف عليها، ولا كنه يلتمس، ولا محسوس يحس، ولا سبيل إلى كيفيته، ولا منتهى لأوليته، ولا غاية لآخريته، ولا صفة تدركها جميع من ذرأ من أصناف البريئة لا السماوية منها ولا الهوائية ولا الأرضية إلا بالآيات من عجائب بدائع ما نصب لهم من الدلائل الدالة على طريق الهدى إلى وحدانيته وحقائق معرفته، فهي كنظر العيان وشاهد الاتقان وحاكم الايقان من سماواته المبنيات، وأرضه المدحورات وما فيهن من المصورات، الشواهد له بإحداث الفطرة وعمد البرية أن خالقاً حكيماً خلقها، وبارياً متقناً برأها، ومدبراً قديماً دبرها لا يشابهها في حالة من الحالات، ولا تماثله هي في جهة من جميع الجهات، ولا تعادله في خصلة، ولا توازيه في مداناة، ولا تضاهيه في كون شيء من، ولا شيء مع شيء، بل فيها آية الصنعة واعتماد البدعة.

جعلها عز وتعالى دلائل تدل عليه، ولو ساواها في شيء وإن حل، أو قاسها في سبب وإن قل، لبان فيه من آيات الصنعة ما بان فيها والذمة من الحدث ما لزمها، ولجرى عليه من الوسم ما جرى عليها ولكان دليلاً على صانع غيره ولما كان للقديم معنى غير معنى الحدث، ولا للخالق معنى غير معنى المخلوق، وقرب بالإحاطة والحيدة والاحسان والنعمة فدنا، وبعد بالمباينة للخلق وقلة المساواة لهم فنأ، وانفن الأشياء عدا فأحصى، وعرف الخليقة ولم يتركهم سدى، وأمر ونها، وبين وهدى، وغفر لمن تاب بعد ما اساء، فلا إله غيره ولا مولى ولا منصرف سواه ولا ملجأ تبارك وتعالى.

باب العدل

العدل الذي لا يجور على خلقه، ولا يأخذ أحد إلا بكدحه وما اجترحته يده وكسبته جوارحه واعتقده جنانه ومال إليه باختياره، الذي لا يريد أمراً كرهه، ولا يرضى فعلاً زجر عنه، ولا يحمل على شيء عابه، ولا يجبر متعبداً على فعل خير ولا شر ولا نفع ولا ضر، ولا

يعمي السبيل ثم يغدر من لم يسلكه، ولا يضطره إلى شيء ثم يعاقب من لم يتركه، ولا يدين حالاً ويجعل في العقول قبولها واستحسانها ثم لا يرضاها، ولا يمنع عن الأصلح، ولا ينكب عن الطريق الأوضح، ولا يكلف غيره الفرض الأسنح، أمر اختياراً، وملك المأمور أن يكون مختاراً، وأعطاه الألة ومكنه الاستطاعة، ولم يُخل من الرسل والسفراء تبين ما به أمر ونهى أرضه، ولا من الهداة والادلاء عباده؛ إذ ليس بذي حاجه فيجور ولا بذي خوف فيحتال، ولا بمحاذر لغلبة فيماكر، ولا بذي خشية لفوات فيبادر.

الأول قبل ايجاد ما اوجد وبعد استعباد من استعبد، الفاضل الذي لا يظلم، والحاكم الذي لا يغشم، والمعطي الذي لا يندم، والغني الذي لا يحتاج إلى استجلاب منفعة ولا دفع مضرة، ولا يحب كون فاحشة، ولا فعل فاقرة، ولا يوقع في موهظة، ولا تهور في مسخطة، ولا يحدوا على قبيحة، ولا يدعوا إلى مهلكة، ولا يسوق إلى متلفة، ولا يقود إلى داهية، ولا يعين على مظلمة، ولا يدين خطيئة، ولا يحمل على معطبة، ولا يغري بنبي، ولا يسلي بوصي، ولا يمالي على تقي، ولا يظاهر على ولي، ولا يمد على زكي، ولا ينصر على صفي، ولا يظافر غوياً، ولا يؤازر خطياً، ولا يكانف ردياً، ولا يعاضد شقياً، ولا يصد عن حق، ولا يميل عن صدق، ولا يسفك دماء الأنبياء بأيدي الأعداء، ولا يزيل عن الرشاد، ولا يديل الأضداد، ولا يريد الفساد، ولا يقضي على خلقه أمراً واحداً نهاهم عن فعله، ولا يحملهم من المحرمات القبائح على ارتكاب موبقة أوجب عليهم الخلود بين أطباق النيران أبد الأبيد في تعمدها، ولا يصدهم عن فرض جاءهم رسله عليهم السلام بأمرهم بفعله، ولا يحول بينهم وبين صواب نطقت كتبه الواضحة باتباعه، ولا يجبرهم على مكروهة تقدم إليهم في تركها، الخاطر لهم الخطل، والواعظ لهم عن الميل، والمانع لهم عن الزلل أمراً لا جبرا، وتخييراً لهم لا قسرا، وحكمة وعدلا ورأفة وفضلا وتحننا وامتنانا ولطفا وإحسانا ونعمة منه فيما أولى، وتماما لكمال ما أنشأ، واهابة بهم إلى الجنان، وتحذيراً من النيران، جل العظيم المنان والواحد الرحمن.

باب الوعد والوعيد

الذي لا يخلف وعده، ولا يحول وعيده، ولا ينقض قوله، ولا يبدوا له في حكم حكمه، ولا يرجع عن أمر حتمه، ولا حق أبرمه، ولا تدبير صرّمه؛ إذ كانت البدوات لا تجري إلا على من لائم له المبرمات، ولا يعلم أعقاب الحادثات ولا تصرف الكائنات ولا مغيب ما يحدث من النازلات، فأما العليم الخبير والمتقن القدير والباطن البصير فمقدس عالي الشأن واضح البرهان عن أن تخفى عليه خافية أو تغيب عنه غائبة؛ لأنه لو لزمه الجهل بشيء حتى يقع أو السهو عن معنى حتى يحدث للزمه العجز عن اختراع ما اخترع وابتدع.

فما وعد وأوعد من ثواب أو عقاب أو وقوف أو حساب لن يكذب فيه رسله، ولن يبطل فيه كتبه، صدقاً وانعاماً وتحقيقاً وتماما جزاء للعالمين وثوابا للمحسنين، وعذاباً للتاركين، وخزياً للطاغين، كما خبر وعرف وسطر وأعذر وأنذر، لا مخرج لأحد من أهل الدارين ولا محيص عن خلد الأبد في كلتي المنزلتين، لا يرجع ما ذكر من ذلك في الجنة إلى دلسه ولا حساسه ولا في أهل النار إلى تخفيف ولا خروج ولا تسهيل ولا تفريج كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾[البقرة:١٦٧]، وقال سبحانه اكذاباً لقول من زعم أنه يخرج بعد ولوج أو يخفف عنه بعد صدق وعيد: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[البقرة:٨١]، وقال عز وجل في صدق ما وعد أهل الجنة: ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ**﴾[الرعد:٣٥]، فقد امتد للفريقين الثوى واتصل لهم الدوام، وطول المقام، والخلود الذي لا انقطاع له ولا انخرام، بدوام المديم ذي الجلال والإكرام.

باب الإقرار بالشهادتين

واشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة متفكر مستبصر، واقرار عارف مستكثر، واخلاص عالم غير منكر، ومحض إيمان غير متغير، وعبادة خاضع غير مستكبر، وتوحيد مهتد غير متحير، ومقر بالعدل غير مجبر، لم تستهوه الآراء، ولم تزلله الأهواء، ولم تحشكه بالغرور الاغواء، ولم تعنقه عن مرة الصواب عقل الالتواء، مستثبت على القنطرة المثلى والمحجة البيضاء، متعلق بالعروة الوثقى وما ورث عن أهل النهى من الآباء الفضلاء والأجداد الرجحاء.

وإن الله تبارك وتعالى العالم الذي لا يجهل، والعزيز الذي لا يذل، والحليم الذي لا يعجل، والملك الذي لا يتحول، والوارث الذي لا يورث، والمحدث الذي لم يحدث، والحكيم الذي لا يعبث، والفاضل الذي لا يتريث، والوفي الذي لا ينكث ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشورى:١١].

باب ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

واشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن الله بعلمه وإطلاعه على الضمائر وخبرته بمكنونات السرائر اختاره على البشر؛ لعلمه باضطلاعه بما حمل، وتبليغه لما به أرسل، وتأديته لما عليه أئتمن، وأنه الكلمة الباقية، والشجرة الطيبة، والخيرة المنتجبة، والصفوة المخلصة، وخاتم الأنبياء والدعوة.

[الأحوال قبل بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم]:

بعثه في برهة الفترة، والظلم والحيرة، والعماء والسكرة، والجاهلية والقسوة، والفتن والتّوه، والتحازب والجفوة، ودروس العلم والملة.

إلى: العاكفين على الأوثان والأصنام، والمتكمهين في غياهب الظلام، والمرتطمين في الكفر والآثام، والمائلين عما أراد الله سبحانه إلى شر مقام، والفاعلين للمنكرات العظام، والمستحلين لما حرم الله من الحرام، المجترين افتراء، والمسيئين اجتراء، والموطئين افتعالاً، والمحمين

ضلالاً، والجاعلين لله شركاء واندادا، والمضيفين إليه ما يكرهون عناداً، أهل عقول صدية، وألباب ردية، وآراء غوية، وحمية وعصبية، يأكل القوي الأضعف، والسرحان الأوطف.

حتى انقذهم الله بمحمد المصطفى - صلوات الله عليه - من مدارج الضلالة، واسلهم به من عماية الجهالة، وكان كما وصفه الله سبحانه حيث يقول: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:١٢٨]، وقال تبارك وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[الجمعة:٢].

[دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما عاناه]:

فتصدّ بنفسه لله – صلى الله عليه – لدعاء الخلق إلى طاعة ربه، والأمر بالرشاد، والنهي عن الفساد، والنزوح عن معصيته، وخلع الأنداد والأضداد، لم يثن عناء به تحالف القبائل، ولا تآلف القنابل، ولا تكانف الجحافل، ولا معاداة الأقارب، ولا تضايق المذاهب، ولا كثرة النوائب، فدعا إلى الله جل ثناؤه سراً، وصبر على الأذى والتكذيب صبرا، وهجر في الله هجرا، حتى اختار الله له مهاجراً وناصراً ودعا إلى الله جهراً، وظهرت كلمته قهرا، وعز أولياؤه طرا، وفشا دينه في جميع الأملاء، وحكم بكتابه، ودرست دعوة الشيطان وذل حزبه، وجدت الفرائض، والشرائع، والحدود، وتم الدين، وعز المؤمنون، وكانت كلمة الله عز وجل العليا وإن رغم الكافرون.

[وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم]:

ثم قبضه الله إليه واختار له ما لديه، ونقله إلى جنان النعيم، والملك الدائم المقيم، غير موسوم بمجاساة في إبلاغ، ولا متاقاة في إسماع، ولا محاباة بإيثار، ولا ضنانة بإخبار، مرسوماً في ذوي العزم، مستشهداً على الأمة، مشفعاً في الزيادة لأهل الطاعة، فصلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار وسلم تسليماً.

باب الإمامة

ألا وإن الله تباركت اسماؤه وجل ثناؤه لم يخل الأرض من حججه والدعاة إلى منهاجه والقومة بكتابه والمنفذين لحدوده بعد نبيه عليه السلام، والوكلاء له على بلاده وعباده، والمفرقين لحقوقه على ما رسم، والأخذين لها كما حتم، من المعدن الذي انُتجب والبيت الذي طهر وطيب؛ كي لا يضيع الإسلام وتبدل الأحكام، ويغير الحلال والحرام، ويدرس دين محمد عليه السلام، كفعل الأمم الماضية والقرون الخالية؛ إذ لا نبي بعد نبينا عليه السلام ينشاء ولا مجيء لسببه من الرسل برجاء، ولا وحي من الله سبحانه إلى أحد من الناس يطرأ، ولا نبوة تدعا بالآيات التي لا تخفى، فمن انتحل في ذلك ما لا يجوز من الدعوى فقد كذب على الله كذبا بيناً وافتراء وصار بقوله إلى لظى والخلود الذي لا يفنى.

[أصناف الأئمة الدعاة]:

فمن الحجج المستحفظين والأئمة الراشدين والدعاة إلى الله الصادقين:

[الخفي المقهور]:

- الخفي المقهور المكافأ فيه رسول الله صلى الله عليه بسفك الدماء، والداهية العظماء والنازلة الكبرى، والإزاحة عن مقام البنوة، فليس له أعوان فيظهر، ولا أنصار فيشهر، ولا عدد فيجدر، قد غلب أئمة الضلال ورؤساء الجهال على منعه واخافته فدثر واستتر تقيةً ووقوفاً عن الالقاء باليد إلى التهلك، وذلك إمام الحلال والحرام.

[المعروف الدار المذكور]:

- ومنهم المعروف الدار، المذكور الاسم، الشاهر للدعوة، المباين للظالمين بالعداوة، قد اختلف فيه فشغل وثبط عن نصره فخذل، ووقف عن اجابته فقبل، ان كف يده عن الجهاد لم تؤوه الجبال ولم تكهفه الرمال، وطلب تحت الحصى لينصر طوع العصى، وقبل هو بديد القيام لطلب ما لا يرام، فمن خوف القالة، وظلم أهل الجهالة، ونقض أهل الظلالة أضحى ولي الله جل ثناؤه خائفاً مترقباً، ان كمن لم يترك لعبادة ربه ولا مقاساة آخراته، ولا التفكر في قرائه، وان خرج مهاجرا يرجوا الجهاد ويروم الاصلاح في البلاد لما يرى ويسمع به في اقطارها من الظلم والتمالي على عظيم الاثم والهجر للقران، والترك للإيمان أفتراق الناس فيه على ثلاث فراق:

فرقة: واست بأنفسها واموالها فجرت مجراه واستوجبت حكمه.

وفرقة: انكرت فعله وعمدت قتله.

وفرقة: كفت عنه وتربصت به.

فاشترك فيه الواقف الراضي باسلابه والقابل البادي في ذمه فذلك أمام السيف المفروض الطاعة المحرم خذلانه والواجبة نصرته.

[المجاب الدعوة]:

- ومنهم المجاب إذا دعا، والمتبوع إذا هدى، والملبى إذا نادى، والمنصور إذا استنصر، فيظهر الحق ويحكم بالكتاب والسنة، حتى إذا اطرد سببه وتشيد بناؤه وغلغلت عروق دعوته، وتمكنت قواعد نحلته وزهرت سرح إمامته، وعاد نفع مقامه على المضطهدين، وجرت الاسوة بين المتعبدين، وبان الضرر على المخالفين، استثقلوا ذلك وملوه ورفضوه وخلوه واختلفوا فيه واذوه، ولو بأمر الله سبحانه قاموا ما عادوه ولا اجتنبوه ولا عصوه فقهقرت طائفة، وحربت طائفة، وشكت طائفة، وواست بأنفسها واموالها طائفة وهم الجزء الأقل والركن الذي عليه المحتمل، فان يسطوى بهم على الظالمين لا ينكأ فيهم ولا يكافئهم، فعند ذلك بقى صاحب الحق يتغصص بحسرته، ويتخنق بعبرته، ويسهد ليله الذي نامت عنه شيعته واهل مقالته، والذين كانوا يتمنونه في الخلوات وينتحلون موالاته بالبرهان، فإن هلك أو عدم ثار أئمة الكفر لطلب الدخول وامنوا من ذلك المقتول، فعتوا في الأرض مفسدين، واهلكوا الخلق أجمعين واستروا بفقده جذلين، وذلك جزاء من رضي بتقديم المخالفين على البررة الصادقين، فهنالك يتمنى المقصرون أن ليت قائماً يقوم، أو داعياً إلى الله جل ثناؤه معلوماً، فيكونوا له أعوانا، وإخوانا، وحضاراً، وانصاراً.

وأنى ذلك وقد اعتصموا بالتفريط، وتوازوى على التثبيط، وصاروا محكوما عليهم بعد ان كانوا حاكمين، ومستثاراً عليهم بعد أن كانوا موسطين، فكان المثل في ذلك كما قال الله سبحانه: ﴿**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[البقرة:٨٩].

[أئمة الحق وعدم الخيرة]:

ألا وإنه ليس للأمة ان تختار برأيها، ولا تقلد بأهوائها، ولا تبرم أمراً من تلقاء أنفسها، ولا تعقد ما اطلق القرآن، ولا تطلق ما عقد القرآن، ولا تبتدع في دينها، ولا تخرج الأمر إلى غير أصحابه، ولا تلزمه في رقابها لغير أربابه، فإنه ليس من دين الله عز وجل شيء ناقص فيحتاج الخلق إلى أن يتموه، ولا سجيل فيحتاج أن يرموه؛ لأن الله جل وتعالى جعل الهداة من عترة نبيه صلى الله عليه وعليهم أجمعين، ففرض الأئمة مؤكد، وعقدهم مشدد؛ لأنهم الدعاة إلى الرشاد، والناهون عن المنكر والفساد، والأباة البصراء بمواضع الداء الدواء، والرقباء النصحاء، وصلاح الأخرة والدنيا، والكاشطون غياهب العماء وحيرة الاستهواء، ولو كان من وصفنا على غير ما ذكرنا من الأئمة ما ضناء ما استحللنا مدحه، ولا انشأنا ذكره، ولا عنفنا المقصر فيه، ولا جعلناه بيننا وبين الله سبحانه وسيلة وقدوة.

باب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وإن الله تبارك وتعالى فرض على خلقه فرائض اكدها وشرائع عقدها وواجبات شددها، لا يقوم بعضها إلا ببعض بعد المعرفة والقول الذي به الدخول في الإيمان وإخلاص الوحدانية، وجعل رأس ذلك والذي به صلاح الأرض وكمال الفرض والتئام الصدع وبسوق الفرع ووصول النفع الجهاد في سبيله، والذب عن دينه، والاخافة لأعدائه، فشرع ذلك ودعا إليه وبين فضله وحث عليه، وجعل الجنة ثمنه، والرضوان نفله، ومتبوأ دار الكرامة الدائمة بدلاً منه، فأنزل في تشريفه وتعريفه وتعظيمه آي القرآن، وبينات الفرقان، والتحريض بالبنان، فلا يجوز أن يصغر ما عظم الله تبارك وتعالى وشرف وفيه رغب، وعلى تركه عذب، من الأمر بالمعروف الأكبر والتناهي عن التظالم والمنكر.

[مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]:

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة واجبة على كل مسلم لا عذر في تركه، وعلى المؤمن أن يغير ذلك بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، وإنما دخل الكفر على أهل الكبائر بمعاصيهم وتركهم التناهي عنها فقال جل ثناؤه فيهم: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٩].

[خطورة التخلي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]:

وقد علمتم وعلم غيركم أن أهل الكتب الماضية قد كانوا إلى يومنا هذا يعمرون كنائسهم وبيعهم، كما يعمر ظلمة هذه الأمة مساجدها، ويقرأون التوراة والانجيل كما تقرأ فسقة هذه الأمة القرآن، ويشهدون أنها حق من عند الله جل ثناؤه، ويشهدون لأنبيائهم بالصدق على الله تبارك وتعالى وتبليغ الرسالة، كما يشهد هؤلاء لمحمد صلوات الله عليه وعلى الطاهرين الأخيار من ذريته بالصدق.

فإنما أوجب الله جل ثناؤه عليهم الكفر جميعاً بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعملهم بالمعاصي بعد الإقرار بالحق أنه الحق، وبالقرآن أنه قرآن، وبالرسول أنه رسول من الله جلَّ ثناؤه، ولما رأينا ارتكابهم لعظيم المعاصي والفواحش، وسفك الدماء، ومحاربة الذين يأمرون بالقسط من الناس رجعنا عند ذلك إلى حكم الله جل ثناؤه في المختلفين، وما يوجب على أوليائه المؤمنين وأهل طاعته المستحفظين، أن من أدرك زمانا قد اختلف أهله، وتفرق غماره عن دينهم، وفسقوا عن أمر ربهم فإذا الواجب عليه أن يسأل ويلتمس ما فيه النجاة من عذاب الله تبارك وتعالى والقرابة إليه والزلفى عنده فسمعنا الله جل ثناؤه يقول في كتابه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[آل عمران:١٠٣]، فحرم عليهم عز وجل الفرقة والاختلاف كما حرم عليهم الكفر وسائر المعاصي.

[المخرج عند التفرق والاختلاف]:

ثم جعل تبارك لعبده المؤمن مخرجاً عند تفرق الأحزاب واختلاف الأهواء وتفرق الناس شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون فقال في كتابه: **﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[آل عمران:١٠٤].

فنظرنا فإذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الصحيح لا يقوم إلا بالسيف والجهاد في سبيل الله، ولا يكون الجهاد إلا مع إمام هدى، ولا [يجلس][1] فيه إلا بذمام يضم قواصيها، ويتفقد نواحيها، ويعقد جيوشها، ويحرس ثغورها، ويقسم فيئها، ويعدل أودها، وينظم أمورها، وينصف مقهورها، ويحبوا على ضعيفها، ويأخذ على يدي ظالمها.

[شروط تطبيق الإصلاح]:

ولا يتم ذلك لمتوليه والمنتهى به إليه إلا: بإجماع، وحسن إتباع، وقبول وإسراع، ومادة، واعوان، وعدة حتى لا يبد قاصي، ولا يبتعد داني، مع الكُفاة والمؤازرين، والقومة المعاضدين، والنصحاء المودين، والأمناء المشفقين، والشيعة المواسين، وذوي الصبر على الضراء، والشاكرين في الرخاء، ففي ذلك قرة العين، وبلوغ الأمل والرجاء للنصر الله عز وجل، وفي الجهاد ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[التوبة:١١١]، وقال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران:١٧١].

[منافع الجهاد]:

وفي الجهاد وفضله والحث عليه، وتحريض المؤمنين على فعله؛ لما في ذلك من الصلاح العائد على أهل الأرض من المتعبدين ما لو ذكرناه لطال تبيانه، ولما أنكر عرفانه، ولا جهلت أعيانه، غير أنا اختصرنا ذكر أقله خشية التطويل، واجتزاء بما يتلى فيه من التنزيل، ولن يخفى الصواب على من استرشد ولا موضع الحق على الذي اليه يقصد، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قوماً احبهم بفعلهم فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[الصف:٤]، فنسأل الله العصمة والهدى، والخوف له والرجاء، والنجاة من موبقات الذنوب والردى إنه منان كريم.

---

(١) كذا.

باب الزكاة والغنائم

وإن الله تبارك وتعالى فرض على عباده في أموالهم وما حوته أيديهم فرضاً واجباً، لم يجعل لهم إلى حبسه سبيلاً ولا إلى الانتفاع بشيء منه وصولاً، فقال عز وجل: ﴿[وَ]أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[البقرة:٤٣]، فبين كيف القيام بالصلاة وعرف فرائضها وجعل العباد مؤتمنين عليها، وخبر كيف ايتاء الزكاة وجعلها مدفوعة إلى مفرقها في وجوهها، والدافع لها إلى أصحابها فقال تبارك وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾[التوبة:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:٩٢].

ألا وإن الزكاة والغنائم من كل مغنم لا يحل لصاحبها تفريقها، ولا يجوز له أن يعطي منها قريباً ولا جاراً ولا من يعول ولا من يريد محاباته، ولا من تجري عليه منفعة ولا من تناله عنايته في وقت ظهور إمام داعي مقترب أو متنائي؛ لأنه لم يجعل للأمة أن تفرقها ولم يرخص للإمام في تركها؛ لعلمه بمواضع الخلل من أربابها، وبصره كيف يؤثرها بعضاً دون بعض من أصحابها، وحفظه لجميع أسبابها، وحراسته لها، ولأنه هو المظهر لدافعها، والمخلص لمخرجها.

ألا وإنها لا تقبل صلاة من غلول، ولا يزكوا مال مع امساك ما افترض الله فيه، ولا ينقص مع اخرجه؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[سبأ:٣٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة:٣٥].

ألا إنه ليس بكنز مال اخرج منه ما فرض الله سبحانه فيه وإن كنزوا، إنما الكنز الذي ذكر في هذه الآية ما لم يخرج زكاته ولا واجباته؛ لأن إذا الزكاة طهارة للأبدان وتمام للأديان، وطاعة للرحمن، ومعصية للشيطان، وذريعة الى الازدياد، وسبيل الى تحصين النعم، ودافع لمحذور النقم، وقيام بالشكر لله عز وجل على ما قسم كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ

الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[الحج:٣٥] **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾**[المؤمنون:٦٠].

[ضرورة دفع الزكاة]:

ألا وإن اخراج ما يجب لله سبحانه إلى من يقوم به ويؤتمن عليه ألح من العطب، وأسلم من الندم، وأحرى بالفوز، وأولى بالإيثار، وأقرب إلى الرشاد، وانفع عائدة على العباد، وأجدر أن يعمر الدار، ويتقوا الابصار، ويحذر الفجار والسفاء الأشرار.

عباد الله إن الخير والشر في الدنيا يطردان، فبادروا الاقلال بالإنفاق، والآجال بالأعمال، وكونوا أوصياء نفوسكم قبل ان تصير أموالكم الى من يسعد بما شقيتم به منعها، ويبذر ما حرصتم عليه من جمعها كما قال الشاعر:

فيا رُب سائح جامع المال ناصب   لأخر لا يسعى ويشقى وينصب

ولا تنظروا رحمكم الله فيما ينقص من المال بإخراج واجبه، وانظروا في نقصان الدين بلزوم ما امرتم بدفعه ولا تكونوا مثل من قال فيه الشاعر:

لا يشعرون بما في دينهم نقصوا   جهلاً وإن نقصت دنياهم شعروا

إنكم لا تحصدون إلا ثمرة ما زرعتم، ولا تحرزون إلا علاما قدمتم وقد قال الشاعر في ذلك:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى   وابصرت بعد الوت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله   فترصد للأمر الذي كان ارصدا

وكما قال الشاعر:

حصادك مما قد زرعت وإنما   يدان امرئ يوماً كما هو دائنُ
فعاون على الخيرات تظفر ولا تكن   على الإثم والعدوان ممن يعاونُ

ألا وإنكم تاركون ما في أيديكم، ومفارقوه ومنتزعون عنه ومخلفوه، فاستكثروا من أخذ الزاد واعملوا ليوم المعاد؛ فإن ذلك أقرب إلى الرب وأنجى من العطب، وحاذروا الشح أن يغلب عليكم وكونوا كما قال الله سبحانه: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[الحشر:٩]، جعلنا الله وإياكم ممن يكتفي بوعظه ويعمل الأرشد من حظه إنه منان كريم.

باب الموعظة وذكر الزهد في الدنيا

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم الذي لا بد من الوقوف بين يديه، والتفريغ على الحساب والكتاب الذي ﴿**لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[الكهف:٤٩]، واحثكم على العمل بطاعة الله التي بها نجا الناجون وربح الساعون، وبتركها خسر المقصرون، واذكركم آلاء الله التي لا تكافأ، ومننه التي لا تحصى، واحذركم اتباع الهوى والركون إلى الدنيا التي غرت المترفين؛ فإنها دار تسويف وأماني، ومحن ونوازل، وفتن وعوارض، ومهاوي وتبغيض، وكدر وتمحيص، ولا تدوم بهجتها ولا تتم جبرتها، ولا يصفوا مشربها، ولا يسلم مرتكبها، ولا ينج مطلبها، ولا يظفر مكتسبها، ولا يترك صاحبها صحيحاً تطلبه الأسقام، وغنيها ترصده الاعدام، وحيها يطرده الحمام، وبناؤها يتبعه الانهدام، وحبلها يجذبه الإخترام، وحارسها يكفيه الاهتمام، من حماها أباحت حماه، ومن رجاها قطعت رجاه، ومن ركن إليها أقحت مثواه، ومن تعلق بها استحقت مهواه، ومن شغف بضرعها أطالت ظماه، وإنما مثلها كمثل أحلام النيام والظل ذي الانصرام والسحاب المنقشع أو السراب المنقطع، قد ضرب مثلها اللطيف الخبير فقال: ﴿**مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا**﴾[الكهف:٤٥].

[قبح التسويف والأماني]:

عباد الله لا تقطعوا الأعمار بالتسويف، والأيام بالأماني، والمهلة بالتواني؛ فإن مدة تنقصها اللفظة والخطة، وجري النسمة لحريه بسرعة الانصرام، وإن غائباً يؤديه الليل والنهار لقمر يوشك الاقتحام، وإن اجلا مغيباً لجدير بخالص الاتهام، وإن طريقها إلى عنده لحقيق بترك المقام، وإنما هما داران أحدهما ضد الأخر فالدنيا دار الفناء ومن هويها كان حزباً للشيطان وعدوا للرحمن، والأخرة دار البقاء وهي الجنة وهي كما قال الله سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**﴾[الإسراء:١٩]، كما روي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: ((**من أراد الأخرة رفض الدنيا، ومن أراد الدنيا رفض الأخرة**))[١]، وهي كما قال الله سبحانه: ﴿**أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[الحديد:٢٠].

ألا يا أهل الغفلة والحسرة والندامة والتغابن يوم القيامة، ذهبت السنين، وانقضت الأيام، وتصرمت المدة، واقتربت الساعة، فنادم لا ينفعه ندامته، ومقصر لا يستدرك ما فاته مما دعي إليه، يأكل حسرة يديه علاما فرط في جنب الله وترك من طاعة أوليائه حيث لا ينفع الندامة، ويؤخذ كل بعمله ولا تغنيه دنياه التي عليها كلب وإيها طلب، قد ارتهن بذنبه واحد بكظمه غنياً عما ترك فقيراً الى ما قدم، منتقلاً عن دنياه إلى قرار مثواه، قد أثبت عليه ملكاه ما نسيه واحصياه، وخلف حفدته وغناه، وصار إلى سيده ومولاه وحيداً فريداً لا عشيرة تمنعه، ولا مال يفديه ولا فصيلة تؤويه، ولا عدة تحميه، لا تجاب دعوته، ولا ترحم عبرته، ولا تخفف كربته، ولا تقال عثرته، فهل إلى التوبة من سبيل قبل إنشاب المنية في المعرض عن الله جل ثناؤه اظفارها ونزولها بعقوته وجدها لا يأمه، وتقويصها لا علامة، واراحتها لمقامه واذلالها لإيتامه، وبحرها لإرغامه؛ إذ لا دافع لمكروهها، ولا فدية لموطؤ فيها، ولا حيلة في

---

(١) عن عبدالله بن مسعود موقوف: «من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة» المعجم الكبير للطبراني ج٩ص١٠٨.

تصريفها، ولا معين على تخفيفها، ولا سبيل إلى وقوفها، ولا مهرب من عنيفها، فالحسرة الطويلة والندامة الجليلة، والمصيبة المهيلة على من فرط في أيام حياته، ولم يعمل لوفاته، وجعل الأثرة على طاعة الله سبحانه وطاعة الدعاة إليه لعاجل شهواته، واتبع الهوى وخالف المنى، وجانب الهدى، وشايع الردى واستمتع بما يفنى، واستعمل الغفلة عما يبقى، وإليه معاد أهل الدنيا.

[سيرة الصالحين في الدنيا]:

ألا إن قوماً اسهروا في الدنيا ليلهم، وأوصلوا بالعمل بطاعة الله أعمارهم، وجعلوا الدنيا وراء ظهورهم، قد أفلحوا وأنجحوا وفازوا وربحوا، أولائك القدوة والأسوة، والأئمة لمن بعدهم في الخير والأدلة، قوم نظروا إلى الدنيا بعينها، واثروا أمر الله فيها، واختاروا الأخرة عليها، فزهرت الحكمة في قلوبهم، وأنارت الهداية بين أيدهم، ولمعت أعلام التوفيق لهم، وقادتهم البينات التي لا تثني، وساقتهم البصائر التي لا تغوي، وصحبهم الصبر الذي لا يردي، وأسعدهم اليقين، وعصمهم كلف الانفس عن الشهوات والاهواء المرديات، فأبوا غانمين، وانقلبوا سالمين، وثووا مكرمين، ليسوا كمثل أصحاب الدنيا و[ا]تباع الهوى الذين جعلوا الطريق مقاما، والسبيل معقلاً، والمجاز دارا استمتعوا فيه بالقليل حتى مالت بهم المهاوي وانحرفوا، وجارت بهم السبل فدحضوا، فلا ما كانوا فيه تركوا له، ولا ما دعوا إلى القدوم إليه ظفروا به، خسروا الحاضر، وغبنوا المنتظر، واخذوا بتضييع ما اغفلوا، وحوسبوا على اليسير الذي اثروا، وطلبوا الرجعة في غير أوانها، والتوبة في غير حينها، وقد سمعوا الله عز وجل يقول: **﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾**[النساء:١٨].

[وعد الله لأهل الجنة]:

واذكروا عباد الله ما اعد الله عز وجل لأهل الجنة فارغبوا فيه، وسارعوا إليه من: أنهارها الجارية، وغرفها العالية، وقصورها المنيفة، من الدر والياقوت، واللؤلؤ والزبرجد، وأنهار العسل والخمر واللبن الخالص، والرحيق المختوم ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، والظل الممدود، والماء المسكوب، والطلح المنضود، والفاكهة الكثيرة التي هي لا مقطوعة ولا ممنوعة، والفرش المرفوعة، والأتراب من الحور العين والأزواج المطهرة، ومجاورة الأنبياء والبررة الصادقين

والأوصياء الصالحين والأئمة الراشدين، ﴿**لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[الأنبياء:١٠٣]، قد أمنوا من حر سقر، والعذاب الأكبر، والنقلة والغير، والموت والاسقام، والجوائح والانتقام، لا يخافون لما هم فيه انقطاعاً، ولا يخشون عليه انتزاعاً ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾[فاطر:٣٥] ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[الرعد:٢٤].

فاسمعوا ما أعد الله لأوليائه وحزبه، واعملوا بأمره تستوجبوا هذه الدار، ومرافقة من فيها من الأخيار، وتبوءوا بالسرور الكبير، والحبور الطويل، حيث لا تنغيص يخشى، ولا زوال يتقى، ولا نعمة تزول، ولا هم يتوقع، ولا خوف يحذر، ولا موت ولا كبر، ولا سقم ولا هرم، ولا فرقة لحبيب ولا عزيز، ولا جوع، ولا حر ولا برد، ولا زوال ابد الأبد ﴿**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا**﴾[مريم:٦٣]، أفمثل هذه الدار تُركت واختيرت الدنيا الفانية عليها ذات الاعراض والامراض، والأحزان والمحن، وزوال النعم، والحر والبرد، والجوع والعطش، ومفارقة الأحباء وعدم الاولياء، كل يوم ينتظر فيها بلية، وتحل منها آفة بين ما ملكها قاهر، وغناؤها ظاهر، وجماعة صاحبها كثيرة، وطاعته عظيمة، إذ زالت نعمته ونزلت نقمته، وفارقه ولده واخوته وأولياءه وقرابته، وصار بعد العز إلى الذل، وبعد الغنى إلى الفقر، وبعد الكثرة إلى القلة، وبعد الكسوة إلى العري، وبعد القوة والشباب إلى الضعف والهرم، وبعد الصحة إلى السقم كما قال الله سبحانه: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾[يس:٦٨].

[حال الميت]:

ثم من بعد ذلك الذي لا بد منه ولا محيص لأحد عنه الموت القاطع للأثر، والمفني للعمر، والذي لا ينجى منه وزر، والحلول في أضيق منزل، وأضنك محل، في حفرة بعيدة عن الأهل نائية عن الزوار، في صدع من الأرض قد شق له وأهيل عليه تربه وأسلب فيه بدنه، وانصرفت الأحبة عنه وخلوه بين العراص الموحشة، والأجداث الطامسة، فورثوا ماله، وكفلوا

عياله، ونسوا حاله التي تزايل فيها لحمه، وتقطع أوصاله، وتفقأ عيناه، وتشق بطنه، ويتناثر عصبه، وتفت قصبه، وينتن ريحه، وتندرس محاسنه، ولو اطلعوا عليه عندها لولوا منه هرباً، ولملوا منه رعباً، ولا عطف عليه منهم قريب مشفق، ولا شفيق ملاصق، أفهذه الدار ويحكم تحبون وإياها على الله سبحانه والأخرة تختارون، أُفً لكم ولما تعبدون من هذه الدنيا التي قد غرت أهلها وخدعتهم، وهي المبغضة لمن أحبها، والمهلكة لمن أغتر بها، فأحذروا أن تخسروا الدنيا والأخرة فتكونوا كما قال الله سبحانه: ﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[الحج:١١].

[ما أُعد لأهل النار]:

واحذروا رحمكم الله النار والعمل المؤدي منها إلى شر قرار، إلى سقر التي لا تبقي ولا تذر، والعذاب الأكبر، حيث لحجت عليهم إغلاقها، وعسر عليهم إطلاقها، واستعر بالقطران إحراقها، في لفحات السموم، وأكل الزقوم، وشرب الحميم، والعقاب المقيم، والنكال المديم، والقطر المذموم، ونار ذات لهب وكلب، وأغلال وتعب، تلاعنهم فيها دائم، ونكاؤهم غير منصرم، وحسرتهم فيها طويلة، وأنفسهم فيها ذليلة، كلما رفعهم مارج لهبها وسما بهم رامي شررها وارادوا ان يخرجوا منها ضربتهم الزبانية بقبضها، واغتدوا فيها كما قال الله سبحانه: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾[الحج:٢٢] ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[آل عمران:١٨٢]، ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**﴾[فاطر:٣٧]، قد ضربت سرادقات النار، واحتدم بهم القرار، واظلوا بحموم الدخان، واغشوا سرابيل القطران، واغيثوا بالمهل والحميم الآن، كما قال الله سبحانه: ﴿**وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾[الكهف:٢٩].

أيها الناس فانظروا بين هاتين المنزلتين، وبما نال كل فريق ما نال، فجردوا لهذه المحمودة، وجدوا واقصروا عن تبع هذه المذمومة، وازدجروا فإن ﴿**اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨].

باب تبيين الحال

ألا وإني قد رغبت فيما رغب الله فيه فنهضت له، وقمت فيما ندب إليه فسموت له وعرفت بما أمر فأعلنت به، ولم اتبع لطلب دنيا ولا توفير مال ولا ازدياد حال، ولا طلب فساد في الأرض، ولا إضاعة لحق، ولا انتهاك لمسلم ولا هتك لمحرم، ولا إراقة دم حرام، ولا اظهار بدعة، ولا فعل شنعة، ولا محبة رفعة، ولا إرادة رفاهية، ولا مفاخرة بجمع، وإنما قمت للازم الحجة لي، ووجوبها لله سبحانه على وثوق ارباقها، على حين جفاء من الاخوان، وتراكم من الأحزان، وافراد من الاعوان، وليس مكاني يخفى، ولا مقامي يغبى، ولا اسمي بمجهول فيعذر الغافل والمتثاقل، ويجد الحجة الخاذل، ويمكن التخلف المتأول، مع المحن التي أنا فيها والأمور التي اقاسيها، من كثرة لائم لا يرضى، وعابد للدنيا، ومطلب للسعة، والغناء ومتربص لا يتقى، ومفرد عنه الشدائد لا يرعى، ومتسخط وقت لا يعطى، وخارج من دار الهجرة بلا ذنب رأى، ومؤثر للهوى ومخل عند بعد الأشياء، كأنهم جهلوا الحق وشرائطه، والإيمان وشرائعه، والمُحق وطرائقه، والقابض يده عن أموال الناس وخلائقه، والصبر وحقائقه وما قال الله سبحانه: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾[البقرة:١٧٧]، وقال عز وجل: ﴿**وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[الحج:٣٥].

وأي صبر ينسب إلى من لم يلق محنة، ولم تنزل به نكبة، ولم تغشه شدة، وعلام يصبر رخي البال متسع المجال، وأين موضع ضرورة التي أحلت فيها الميتة وبعض الأشياء المحرمة التي ذكرت للمحتاج إليها، والشدائد والأزمات والمحل والاقتار والسنين وخوف العدو الذي نال من كان أكثر قياماً بحق الله سبحانه، وخوفاً له وعملا بطاعته كما قال تبارك وتعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾[البقرة:٢١٤].

[أهداف الدعوة]:

وما دعوت إلى الدنيا فإذا عدمها معي أهلها ذهبوا، وإذا فارقوها انقبلوا، وإذا تعذرت غضبوا، وإذا اختلفت لمزوا، وإذا أدبرت همزوا، وإذا عاصت اشمأزوا، وإذا جرت عليهم فروا.

ألا وإني إنما دعوت إلى ما دعا إليه من كان قبلي من الأئمة الطاهرين والعباد الصالحين: من عبادة الله سبحانه، والقيام بأمره، والصبر له، والعمل إلى انقطاع الأعمار، واللحوق بمنازل الأخيار، ليس كمن ذكر الله سبحانه حيث يقول: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[الحج:١١].

وأنا عبد الله، وابن نبيه صلى الله عليه: الشاري نفسه لله سبحانه، الغضبان لله جل ثناؤه إذ عصي في أرضه، واستخف في فرضه، وقتلت الدعاة إلى دينه، وشبه بخلقه، ونطقت الألسن معربة بشتمه، وإضافة القبائح إليه، وعدل بالحق إلى غير أهله عتوا على الله سبحانه وتمرداً على أهل طاعته، وانكماشاً في معاصيه، وتمسكاً بدولة الظلمة المفسدين في الأرض بعد اصلاحها، فلو اسعفني الأعوان، وعاضدني الأنصار، وصبر على دعوتي أهل الأديان؛ لعلوت فرسي، واعتصيت رمحي، وتقلدت نجاد سيفي، وأجبت درعي، وقصدت أعداء الله عز وجل، وكافحت الأقران في يوم الطعان صابراً محتسباً مسروراً جذلاً، إذ شرعت الأسنة واختلفت الأعنة، ودعيت نزال لمعانقة الأبطال، وتكافحت الرجال، وسالت الدماء، وكثرت الصرعى، ورضي الرب الأعلى، فيالها خطة مرضية لله جل ثناؤه ما أشرفها، ويا لها منة حملته ما أكرمها، ويا لها تجارة في الله جل ثناؤه ما أربحها، ويا لها نعمة ما أحسنها.

وأنا اشهد الله ذا الكبرياء لوددت أني أجد إلى حيلة سبيلاً يعز فيها الدين، ويصلح على يدي أمر هذه الأمة، وإني أجوع يوماً وأطعم يوماً حتى تنقضي أيامي، وألاقي حمامي، فذلك أعظم سرور، وأجل حبور، وأشرف الأمور، ولو كان ذلك وأمكن ما نزلت عن فرسي إلا لوقت صلاة، والصفان قائماً والجمعان ينتضلان، والجيشان يتجاولان؛ فنكون كما قال شاعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بصفين:

ايمنعنا القوم ماء الفرات وفينا السيوف وفينا الحجف

وفينـــــا الشـــــوازب مثــــل الوشـــيج   وفينـــــا الرمـــــاح وفينـــــا الزعــــف
وفينـــــا علــــــي لــــــه ســــورة   إذا خوفـــــوه الـــــردى لم يخـــــف
فــــدبوا إلـــــيهم دبيـــــب الجمـــــال   دويــــن الـــــذميل وفـــوق القطـــــف
فإمـــــا نحــــــل بشــــاطي الفـــرات   ومنـــا مـــنهم عليـــه عليـــه الجيـــف
وإمـــــا نعـــــيش علــــى طاعـــــة   تحــــل الجنـــــان وتحـــوي الشـــرف

وكما قال جدي القاسم بن إبراهيم عليه السلام:
دنيـــاي مـــا زال همـــي فيـــك متصـــلاً   وإن جنابـــك كـــان المزهـــر الخضـــرا
إذا انقضـــت حاجـــة لي منـــك اعقبهـــا   هـــم بـــأخرى فمـــا أنفـــك مفتقـــرا
مـــــتى أراني إلى الـــــرحمن مبتكـــــراً   في ظـــل رمحـــي ورزقـــي قـــل أو كثـــرا

ولكن قلَّ المعين على هذا الدين، فلست انفك عن طاعن نهى وظاعن عن حوزتي ثنى، أو لائم بلسانه إذا قصرت الأشياء، فأنا وحيد دهري وغريب أمة جدي، قد شغل بذلك قلبي، وضعف عزمي[1]، وكسرت عن مجاهدة الظالمين نيتي، وقلَّ الصابر معي حيث لم أسعد الخلق إلى هواهم ولم انلهم منهم، ولعمر الله قسماً حقاً لوا رحبت وتاقيت، ووسعت بالحرام وأرضيت لكثر مادحي وتابعي، ولسهل كثير من المستصعب عليّ، ولجرت الأمور على سنن الاستقامة لي؛ ولكن لا يراني الله سبحانه حيث يكره، أصلح دنياي بخراب آخرتي، وأسعى في مراد الأدميين بمعصية خالقي، وأنقطع عن إدخار الباقي بما يزول عني، فأكون كالسراج يحرق نفسه ويضيء لغيره، فهل بينهم أريب أو يساء الظن بأديب أو توبت حسيب أو يوصم عالم أو يعنف ذو بصيرة أو يهن ذو دين أو يقعد ذو يقين عن طلب منيفات العلى واكتساب المكارم التي لا تبلى، والذكر الشريف الذي يبقى.

[من محاسن الحكم]:

لأنه من لم يبُل بالعجز عن النهى فقد شهد على نفسه بالدنا، ومن كره مصاحبة الاتقياء ومجاورة الرجحاء ومعاضدة الأمناء فقد أقر على نفسه بالفجور وسخافة الدين

(١) من بداية تبيين الحال إلى هنا نقل في الحدائق الوردية مع اختصار ج٢ص٨٩-٩١ عن المصابيح ص٥٩٩-٦٠١.

وضعف الهمة والزهد في الأخرة، ومن نصر الحق كان حقاً على الله جل ثناؤه نصرته، ومن نصح لأولياء الله سبحانه أمن عواقب الدنيا والأخرة، ومن خذل الحق كان حقيقاً على الله تبارك وتعالى خذلانه، ومن صبر لله جل ثناؤه على اللأوا والبأساء ومفارقة ما يهوى لحذار ما يخشى توفاه الله مؤمناً مقبولاً عنده، ومن لزم الحق هيب جانبه ودامت نعمته وثابت مروته ووجبت موالاته، ومن وفى بعهده ثبتت عند الله عدالته وقبلت مقالته وحسنت حالته وزخرفت جنته، ومن والا الأخيار البررة وقد، ومن مال إلى الأشرار الغواة حقد، ومن خالف قوله تردى من فعله غدر وفجر، ومن قابل على إقامة الحق نصر، ومن قابل أهل الحق كفر، ومن خذلهم خسر وإلى جهنم حشر، ومن تهاون بأمر الدين ظلم وأثم وارتطم، ومن غش أئمة الهدى وصاحب أهل الردى ذُم وشُتم وأُتهم، ومن عرف الموت حق معرفته وذكر الوقوف بين يدي الجبار الأعظم لم يحرص على حطام الدنيا، ومن اتقى واستحيى كفى الناس مؤنة نفسه وأعان على نجاته، وإخوان الثقة من شاركك في المحبوب والمكروه، قال الشاعر:

عليك بإخوان الثقات فإنهم قليل ... فضلهم دون من كنت تصحبُ
فما الخل إلا من صفا لك وده ... ومن هو ذو نصح وانت معتبُ
اصافي خليلي ما استقام بوده ... وامنحه ودي إذا يجنبُ
ولست بنادي صاحبي بقطيعة ... ولا انا مفش سره حين اغضبُ
ولكنه ان مال عني جانباً ... قصدت إلى الأمر الذي هو صوبُ
إذا ما وضعت الأمر عند مضيع ... فذاك اذن دنت برأسك يعصبُ

[تأثير المصالح على الأتباع]:

هؤلاء الإخوان ليسوا كمن إن اسعفتهم الدنيا رضوا وحبروا صاحبها وقاموا معه بجهدهم واستفرغوا طاقتهم وشهدوا له بالفضيلة فيهم والطاعة عليهم، وإن ضاقت بهم حاله نسوا من الأخرة حظهم ورموا بالجنة وراء ظهورهم ولم يراقبوا الله سبحانه فيمن أفترض طاعته عليهم بل إمامته عندهم مزاحة وطاعته غير واجبه، والألسنة فيه مطلقة والأهواء عنه مفترقة، والقلوب عنه متقلبة، لا يوفون له بذمة ولا عهد، يطلبون له الغوائل، ويقولون فيه العظائم، كأن لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿**الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا**

يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:٣]، كلما اصابتهم محنة أو نالتهم خصاصة رفضوا أمر الله عز وجل عنهم، ورموا بطاعة أئمتهم وراء ظهورهم، فإن اتسعوا فنحن أئمة الحق عندهم ومن خالفنا كفر لديهم، وإن اضاقوا استجازوا فينا ما يستجزون في أئمة الظلم ورأوا المقام عندنا حراماً والظعن عنا مغنماً، ننسوا ما كان محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته فيه ومن معه من المؤمنين من: الجوع، وربط البطون، والزلزلة من العدو، والخوف، والمحن الشديدة.

[شكوى إلى الله]:

فإلى الله اشكوا بإخواننا ما امتحنت به من فقدان الأخيار والقلة من أهل الدين، فأنا غريب مضطهد بين غضبان لا يرضى ومغري لا يمل من الاغراء؛ ما لم نسعفه في ظلمه ولم نتركه وما يحب من معصية خالقه، وحلنا بينه وبين ظلم من كان يظلمه ممن هو دونه، فليس له راحة عند نفسه إلا موتنا، ولا رضى دون ذهابنا، فهو مغضب دهره، حنق عمره، وولي عند نفسه مجتهد، أكثر غايته العتب، ومجاراة من يعتب علينا فيما لم تسعفنا فيه الدنيا فنرضيه، فهو عند نفسه محروم مستهان به مؤثر عليه غيره بظنه، ينظر إليّ بعين السعة وإني قد علمت حاله فلم اعطه ما يكفيه، وليس معه حقيقة دين يحسن ظنه، وصنف ثالث وهو من له ديانة، ويعمل على وفاق مروءة، فذلك عاذر منصف، يحب عزنا، ويشتهي تمام أمرنا، وهواه معنا وذلك القليل من الناس كما قال الله سبحانه حين ذكر المؤمنين فقال: ﴿**وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**﴾[ص:٢٤].

فإلى الله تبارك وتعالى نشكوا قلة المؤمنين، وظهور الظالمين، وعبادة الناس للدنيا، فابغض الناس إليهم من خالف هواهم أو قصر في إعطائهم من الدنيا، فقد اصبحت بحمد الله مناصباً في الله معاداً في طاعته، قد بليت بمحن لا تصرم، وضيق من الدنيا لا يتسع، فالدنيا لا يسعفني حطامها فيتبعني أولادها، والأخرة فقد ذهب طلابها وتولى أصحابها وقل أعوان الداعي إليها، فأنا كالمنادي عند رأس الميت لا يُسمع ندائي، ولا يقبل دعائي، ادعوا إلى الله سبحانه فلا أطاع، وأنادي الخلق فيتخلف عني الأتباع، لا يحفظون في محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأكيد فرض الله سبحانه في كتابه وما أمر به من طاعته قرباء رسوله الأمرين

بأمره والناهين عن نهيه، والمؤثرين له حتى كأن الذي امروا به من اتباع صاحب الحق والإسراع إلى دعوة الصدق هو الذي نهوا عنه من خذلانه والتخلف عنه، وصاروا لا يؤدون لله عز وجل فرضاً، ولا يقيمون له في عبادة حقاً، قد شغلتهم الدنيا وزخرفها وزينتها، فهم إليها يهرعون وفيها لأنفسهم معملون، لا يريدون بها بدلا ولا عنها منتقلا ولا عن فانيها حولا؛ فهي غايتهم عند أنفسهم، قد تركوا الذي له خلقوا والذي به أمروا، فالقلوب قاسية والأهواء عن الحق نائية، والعيون عن موضع رشدها طامحة، فالكبر شعارهم، والتعظم دثارهم، والغفلة شأنهم، لا يفيقون ساعة، ولا يرجعون الى الله سبحانه طرفة، قد ثوى الحق بينهم وطال مقامه فيهم فملوه واعرضوا عنه ومقتوه ورفضوا صاحبهم وتركوه، فقلوبهم إلى الباطل قد أشرفت، وأعينهم إليه قد شخصت، وهممهم به قد شغفت، فهم له محنون، وإليه مائلون، وعني منصرفون، فأصبحت كالكعبة لا حاج اليها، ولا طائف بها، أو كالمصحف لا قارئ له لا عامل بما فيه، أو كالمنادي لا مجيب، أو كالقائم في محراب مسجد لا مصلي معه، أو كالعين العذبة في الأرض العذبة لا وارد لها ولا محتاج من صفوها، فارق هواي هواهم، ونزعي نزعهم فأنا أدعوهم إلى الجنة، وهم يدعونني إلى النار كمال قال العبد المؤمن: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[غافر:٤٦].

وما اشبه زماننا هذا وما نحن فيه وما نعانيه ونقاسيه بما روي عن النبي صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم حيث يقول: ((**يأتي على الناس زمان تغيض فيه الكرام غيضاً، وتفيض اللئام فيه فيضاً، وتصير الولد فيه غيظاً، والمطر قيظاً، فإذا كان ذلك الزمان فاعنز عفر في جبل وعر خير من ملك بني النضر**))[1]، ولقد سمعنا عن بعض الصالحين أنه قال: «يأتي على الناس دهر يصير فيه العلماء عند أهله جهلا، والجهلاء علماء، وأهل

(١) مجموع محمد بن القاسم الرسي ص٣٨٨.

الدين والإسلام عندهم اشراراً، وأهل الشرارة اخياراً، وعلماؤهم وأئمتهم متهمون، والظلمة وابناء الدنيا لديهم مؤتمنون»، فأبعد الله ذا الدهر وأهله إلا من آمن بالله واتقاه وخافه ورجاه، فنحن وأهل دهرنا هذا كما قال جدي القاسم ابن إبراهيم عليه السلام:

تظالم أهل الأرض حتى كأنما ... به أمروا وهو الذي عنه حذروا

وقال آخر[1]:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وكنتم آخر الأمم

في أهل بيتي وابنائي وحاشيتي ... منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وكما قال امرئ القيس في شعره:

خليلان مختلف شأننا ... أريد العلا ويريد السمن

فهمي دماء بني مازن ... وهم المجلي ضياح اللبن[2]

فهذا مثلي ومثل من أقاسيه من شيعتي وأهل مقالتي والمنتحلين لموالاة آبائي وأجدادي عليهم السلام.

أيها الإخوان فلا تكونوا أشباها لأولئك الذين يطلبون الحق بأهوائهم، والإيمان بتمنيهم وليس يأتونه بأفعالهم فإن الله سبحانه لا يعبر بالقول دون الفعل؛ لأن الإيمان «قول مقول، وعمل معمول، وعرفان في العقول»[3]، ولا يتم بعض المعاني إلا ببعض، ولا يصح الإيمان دون إكمال الفرض[4].

---

(١) زينب بنت عقيل بن أبي طالب عليها السلام.

(٢) وفي (أنساب الخيل) للكلبي ص٦٠ وغيره: وراق المعلى بياض اللبن.

(٣) مجموع الإمام القاسم الرسي ج٢ص٦٣٤.

(٤) من مسائل الطبريين ص١٣.

[ضرورة التفكير في النجاة]:

ففكروا – رحمكم الله – في الأمر ما به النجاة، واعلموا – أرشدكم الله – أن القلوب ترب والعلوم غروسها والمذاكرة ماؤها والطاعة أغصانها والأعمال الصالحة ثمارها، وإن المواعظ لا توضع لتستمع ويتلى بها في المجالس والمسامر؛ وإنما توضع ليعمل بما فيها، وليتفكر متكفر، ويتدبر متدبر، ويتذكر مذكر لعل ناجياً ينجوا أو سامعاً يفلح أو تائباً يقلع أو جامحاً يقصر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الذاريات:٥٥]، وقال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[فاطر:٦].

باب المعتبة على من رجع بعد الهجرة

لما ضاق عليه حطام الدنيا ودعاويته للأولياء فيما أفترض الله سبحانه عليهم وبما يكون به نجاتهم، ألا وإن من أكثر الأشياء غماً لي، واقرحه لقلبي، وأدر به لكلمي، وأشده مضاعفة لهمي انكساف أملي، وإخلاف رجائي، وتكذيب ظني ممن كنت أرجوه، واشيد إليه وادعوه، واعتد به وأواليه، واجعله ذخراً وأصافيه، واتكل عليه في الحالات وأواخيه، وارشحه لنصرة الحق واعتضد به على كلمة الصدق، ممن هو وكر دعوتنا، ومغترس مقالتنا، وشيعة أسلافنا وحضان علمنا وسور على تجلينا دَعوةُ القاسم صلوات الله عليه، والقولة بفضله والمعتقدون لمقالته، والدائنون لله عز وجل بمذهبه، وأنصار الهادي إلى الحق صلوات الله عليه، ومشاركوه وأتباعه وأعوانه وكنزه وعصابة مباهاته، المبرزون في النصيحة والعاملون على الديانات الصحيحة والمبتغون في ساعة العسرة.

أشرنا إليهم لهمنا، وإذخرناهم لنصرتنا، وأعددناهم لحربنا، واوعدناهم عدونا، واضطرحنا بهم على ضدنا، وتربصنا قدومهم على الحال المعينة لنا، وخبرناهم خبرنا، وسألناهم الهجرة عاجل النصرة على حال الإمكان من امكنه بماله وبنفسه فيفعل، ومن كان في موضعه انفع لنا فليقم، ومن أمكنه بماله لغيره ممن هاجر الينا من إخوانه فليبعث به، وقبلنا ذلك ولم نترك إلى عذر سبيلا، ولا إلى حجة إلينا وصولاً، فلم نكلف في ذلك شططا، ولم نحمل مسلماً

ثقلا وعرفناهم أنه لا عذر في تركنا، ولا رخصة في التخلف عنا علاما قد بينا من الحال وشرطنا، فوصلت بنا عصابة ما زادوا على أن هتكونا، وفضحونا، واذونا، وشتمونا، وفعلوا كفعل الأجناد بنا، فأشمتوا عدونا، ونكوا قلب ولينا، وتركونا في الحاجة، وخلونا في القلة.

فيا عجباً بعيدة الدار شاحطة المزار، جرعوا التنايف والقفار، والضحاضح والأغوار، وتشجموا تعب الأسفار، وطلبوا الهجرة إلى دار، وارادوا الصبر لله سبحانه والمجاهدة في سبيله مع حزبه ثم لم يتموا ما له نهضوا، ولم يعمروا ما فيه نهدوا، ولم يستقيموا على ماله قصدوا، ولم يراقبوا من عبدوا، رجوناهم لتشييد البناء فهدموه، ولتمام الأمر فصرموه، ولوصل الحبل فخرموه، ولإظهار الحق فكتموه، فكانوا كما قال بعض الشعراء:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ

أرى ألف بان لا تقوم بهادم فكيف ببان خلفه ألف هادم[(١)]

[أسباب تغير النفوس]:

فلا أدري أتغيرت نياتهم بعد ما خرجوا؟ أم خرجوا لغير ما لقوا؟ أم أرادوا سوى ما له دُعوا؟ أم كتمهم من أمرناه بإبلاغهم فجهلوا؟ أم انكروا الشريطة فيما بيننا فغلطوا؟ أم حسبوا أن الدنيا لنا مواتية فقدموا فلما عاينوا ما نحن فيه من ضيق الحال ندموا؟ فمنهم من طعن ومنهم من ظعن، ومنهم من أسر ومنهم من أعلن، ومنهم من رضي ومن الله خشي.

[معاناة الأنبياء ودعاة الحق]:

وإني لأعلم أن هذه الحال التي أنا معهم فيها مما قد شكوت هي حال الأنبياء الماضين صلوات الله عليهم أجمعين مع أممهم والأوصياء من بعدهم، يكذبون، ويؤذون، ويرجمون، ويعصون، حتى يكون الله سبحانه المهلك للظالمين، والمفني للطاغين، شغلهم والله عن حق الله وعن طلب الجنة؛ التكابر، والتكاثر في الأموال والأولاد، وطلب الرفعة في المنازل، فأي عظيمة أعظم وأي جاهلية أجهل أوي غفلة أغفل من غفلة من افترض الله سبحانه عليه الجهاد بنفسه وماله ولم يجعل له عذرا في التقصير، ولا طريقاً الى الإمساك والتخلف والاصغاء إلى الطاعن والأمر بالبخل والشح والمرخص في الرفاهية والركون إلى الأموال والأوطان والأزواج

(١) مكتوب: اخر.

والأولاد، ولم يتم له ما يأتي به من طاعته، والجهاد في سبيله إلا بطاعة أئمة الهدى الذين انقذ الله بهم من الضلالة، ونصر بهم من العماية، لا يتم لهم نجاة إلا بالقائم، ولا يصح لهم عمل إلا بطاعته وانفاذ أمره والصبر على المحنة معه، فصاروا يمنون علينا الهجرة إلينا، ويجعلون جهادهم لنا دون الله عز وجل، ويطلبون الأجرة في ذلك منا، ولا يرضون إلا بالغاية التي لا نبلغها ولا سبيل لنا إليها، والحاجة لهم والمنة لنا عليهم، والله سبحانه قد أمرهم بالطاعة لنا، وبذل دمائهم وأموالهم بين أيدينا، فصانوا انفسهم عنا، ورفضوا الجهاد عنهم معنا، وظنوا بأموالهم عن انفسهم فهلكوا واهلكوا، فأما هم في انفسهم فتبوأوا النار بتركهم ما فرض الله سبحانه عليهم، وأما الذي اهلكوا به غيرهم فخذلانهم لصاحب الحق، وغل الزكوات وما حكم الله عز وجل به في أموالهم من المفروضات للمستحق لذلك من المهاجرين، والمجاهدين وأنصار المحق، وأحراس الدولة، فافترقت الدعوة، وضاع المؤمنون، ولم يكن نيات ولا بصائر تحملهم على الصبر فيما فيه نجاتهم، فيعملوا عمل من يريد الأخرة ويطلبها، ويؤثر الذي يبقى على الذي يفنى، فكانوا كمن سار إلى بلد بلا عدة، فلما قاربها انقطع به، فذهب فلا في موضعه أقام فيسلم، ولا إلى حيث أراد يبلغ فيغنم.

فقد هلك من قصر في انفاذ ما أمره الله به وإخراجه إلى غيره، وهلك من قلّ صبره على القلة، فقد أصبح كل عند الله سبحانه هالكاً فلا يبعد الله إلا من ظلم، قال الله سبحانه: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾[المائدة:٩٩]، ويا عجباً من عصابة مستحلة للحق والنصرة له والمعاونة لأهله والتقوية لأصحابه، وهي مقيمة في منازلها متسعة في أحوالها، قد ظعن منها من قد عرفت حاله وخبرت بما إليه تعل، وشورطت على ما عليه ترتحل ويستوي عليه الأمر لصاحب المقام فأمسكت واجبها [وخلفت معاونة إخوانها، وتخلفت بما في أيديها، ونامت عن أمر دينها، وركنت الى دنياها][١] وخذلت إمامها، وفارقت قوامها، وآثرت أيامها، ونسيت حمامها، وثمرت حطامها، ولم تخش اختلاس ذلك من أيديها، وانتزاعه من ملكها، وانصرامه وانقطاعه عن حوزها، وابعاده عن فوزها، وقد علمت أن الطاعة وبذل النصفة والنفقة في سبيل الله والمواساة لذوي الفاقة وذوي السهمان

(١) مضاف على الأصل.

المستحقة به تدخل الجنة، وتغفر الخطيئة، وتحط الأوزار، وتشد الإزار، وترضي الجبار، وتكثر الأنصار، وتذل الفجار، ويدفع البلاء، ويهن الأعداء، ويتم النعماء، ويطرد العطاء، ويشمل الرجاء، ويحسن البناء، ويعلوا الأمناء.

[كمال الدين بالتعاون]:

ألا وانه ليس يتم دين المؤمن، ولا يكمل إيمانه، ولا يصح يقينه حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه، وما يظن أنكم إذن رضيتم أن لو حلت بكم نازلة، أو هجمت عليكم طارئة، ونحن أولوا مقدرة أو وصلة إلى نصرة أو معونة بيد أو مال كقدرتكم على ما فيه عون من تصل من قبلكم واعباؤه، وفيه تغيب وإليه ترغب، أنكم إذن رضيتم ذلك ولأستحسنتموه ولا قبلتم غير القيام به والمصير فيه إلى أقصى مرادكم، فكيف والأصل عليه المعتمد وهو السبيل المنجي الذي إليه المقصد الجلل القليل فيه، والضرر اليسير الداخل على أهله، أكثر من أضعاف ذلك الذي في غيره، وحلوله بسواه فلا تفرحوا با[ستبقاء][1] منكم في منازلكم [وعمار بكم][2] لنا جنبكم، وتخريبكم لدارنا التي بها قوام أمركم ودينكم، فإنكم مسؤولون عن فعلتكم، ومعذبون على عقلتكم، ومحرومون من لذتكم، وحاصلون من أعمالكم على مثل السراب كما قال الله سبحانه: ﴿**أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[النور:٣٩]، وكما قال سبحانه: ﴿[3]**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾[الكهف:١٠٥]، وكما قال سبحانه: ﴿**أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾[إبراهيم:١٨]، فلا ماناً قستم فيه من الدنيا يبقى لكم، ولا الأخرة نلتم، أفترضون أن تخسروا الدنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبين.

---

(١) ليست واضحة لعلها كذا.

(٢) ليست واضحة لعلها كذا.

(٣) مكتوب: اولائك.

ألا وإن الله تبارك وتعالى لم يسأل العباد نفقة من فقدو، ولا قرضاً من ضر، ولا معونة لأوليائه من عجز، ولا يصل إليه ذلك، ولا يليق به، ولا تجري عليه صفات البشر، وهو يقول: ﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾[محمد:٣٨]، ويقول: ﴿**وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ**﴾[الأنعام:١٤]، وهو الرزاق لكم والمعطي، والمحسن إليكم والمبلي، والوارث لكم ولما في أيديكم، والمغني والمكافئ على الأعمال والمجازي، فإنما انتم تفكون رهينات رقابكم لأداء ما عليكم لأن الله يقول: ﴿**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾[فصلت:٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[آل عمران:١٨٠].

فسألكم الله تبارك وتعالى العطية مما آتاكم، والانفاق مما رزقكم، والقرض مما خولكم، ومنه أصله، وهو الممتن به كرماً واحساناً وتعريضاً لثواب الأبد، كما قال سبحانه في ذكر ما حوت الأيدي وأنه لهو المؤتي ﴿**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾[النور:٣٣]، وهو المعطي له، وهو المثيب على إخراجه، والمخلف خيراً منه، فأي منَّة أجل، وأي رأفة أحسن من فعل الله سبحانه بنا وبكم، وأي نعمة أعظم من فعل الله سبحانه بنا وبكم وتسهيله علينا وعليكم، فاشكروا الله سبحانه عباد الله، وانفذوا لما أمركم به؛ تظفروا بالحظ الأوفر، والنفس الأكثر، والجزاء الأكبر، واستعينوا بالله يهديكم، واسلكوا طريق الحق يرشدكم، فليس الدينا بعوض من الأخرة، ولا يرزأ فانيها مع سلامة الدين، والمكانفة للمحققين الذين أفترض طاعتهم رب العالمين وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا ابقـــت الـــدنيا علـــى المـــرء دينـــه   فمـــا فاتـــه منهـــا فلـــيس بضـــائر
وإن امـــــرأ يبتـــــاع دنيـــــا بدينـــــه   لمنقلـــــب منهـــــا بصـــــفقة خاســـــر

[خطورة التخلف عن أئمة الحق]:

واعلموا – رحمكم الله – أن من خذل أئمة الهدى ورغب عنهم بنصرته بنفسه أو معونته بماله أو الدعاء إليهم والتحريض على اتباعهم والكون تحت ألويتهم، أو قبل فيهم كيد كائد أو سعاية جاحد أو حسد حاسد أو طعن طاعن أو ترخيص مثبط أو تأويل متأول بلا حجة ولا كشف عن حقيقة، وقبل ذلك تقليداً للرجال ومساعدة لنفسه في الميل إلى الضلال؛ فذلك عند الله جل ثناؤه من الظالمين، فليتقي الله عز وجل، وليحسن النظر لنفسه قبل الحسرة والندامة وقبل أهوال القيامة وقبل قوله: ﴿**يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا**﴾[الفرقان:٢٩].

[الدوافع القبيحة للأتباع]:

والدنيا فمنقطعة فانية وبالله ما آسى عليها ولا على أهلها، ولا عليّ أكثر من النصيحة والإبلاغ كما قال الله سبحانه: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[الكهف:٢٩]، ولوددت أن بيني وبين أهل دهري هذا بُعد المشرقين، فقد كرهوا حقي الذي جئت به، وطاعتك اللّهم التي دعوناهم إليها، وكرهت دنياهم وباطلهم الذي يدعونني إليه، كلٌ يدعوني إلى هواه ويرمي بما أمرته من طاعة الله وراه، لا يجتمعون له سبحانه على كلمة، ولا يؤثرون له طاعة، ولا يطلبون من الأمور إلا ما صلح لهم، ولا يريدونني إلا أن أشفي غيضهم، وأكون معهم على عدوهم، وأقبل الأمور في أيديهم، وأن يكون الحق ما أرادوا، والباطل ما كرهوا، فلما فارقت اهوائهم، وآثرت طاعتك يا مولاي عليهم، اتخذوني عدواً ومن قبل ما عودي فيك الانبياء المصطفون والائمة الطاهرون، رب توفني مسلماً، وألحقني بالصالحين، واجعلني من ورثة جنة النعيم، واحشرني مع آبائي وأجدادي الطيبين، وارجني عن عشرة ابناء الدنيا المغرقين فيها الذين عبدوها دونك، وآثروها عليك إنك أرحم الراحمين، قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿**[ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ]**(١) **مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الأنفال:٥٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا**

---

(١) مكتوب: وما كان الله.

عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦].

[أسباب تغير النعم]:

فالله تبارك وتعالى لا يغير نعمة، ولا ينزع عن خلقه رحمة، ولا يحل بهم بلية، ولا نقمة، إلا بعد الحجة، واتيان داعي الحق والمنبه عن الغفلة، والمهيب بهم الى النجاة، فإذا جاء ذلك فرُد قوله، أو حورب دون حقه، أو كُذب في صدقه؛ حلت النقم، وزالت النعم، ووجب العذاب، واستحقت النار، فلا يبعد الله إلا من ظلم، وترك الحق عيانا، وخذله صراحاً، واصر على خطيئته إصراراً، ولم يرجع عن ظلمه.

[ومن محاسن الحكم]:

والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل، فإن من أبصر عيب نفسه انشغل عن عيب غيره، ومن تعرى من لباس التقوى لم يستره شيء من لباس الدنيا، ومن قنع بما رزقه الله لم يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ومن تكبر على الناس ذل، ومن تاه عليهم قل، ومن ترك القرآن ضل، ومن مضغ الناس بلسانه أثم، ومن قبِل الوقيعة فيهم ظلم، ومن أسرع إلى تصديق النمام شرك، ومن قبِل السعاية بغير كشف هلك، ومن ضاد الحق قُهر، ومن خالف أهل الدين الصحيح حسر، ومن عاند أهل التوحيد والعدل كفر، ومن شك في الوعد والوعيد أو كذبهما عاند الله عز وجل في حكمه ورد على ناطق القرآن، ومن كذب إماماً من أئمة الهدى كان كمن كذب نبياً من الأنبياء، ومن أطاع إمام ضلالة برِئ من الله سبحانه ومن رسله إلا أن يتوب ويقلع، ومن هتك حجاب مسلم انهتك حجابه، ومن أحسن أستحق الثواب وحسن للمآب، ومن أُعجب برأيه وعصى نصحاءه اقتحم في غطاميط الجهل ولم يحمد عاقبة أمره.

باب المعتبة على أهل الجبل[1] خاصة وتنبيه وتحذير من الغفلة لأهل السهل[2] والأولياء عامة

ومن أعجب العجب وأعظم المحن أن أحدكم إذا أعجبته نفسه، وحمد رأيه، وخيل إليه أنه رئيس موضعه بالدعوة إلى المحقين والتعلق بالأئمة الصالحين، وكان على خلاف ما إليه دعاه إمامه، وعلى غير ما يتبعه عليه إخوانه، وخشي أن يميز عليه من معه ويلومه في تخلفه، ويهمزه في نعمته، طلب العلل وأدار الحيل؛ لتستقيم نعمته، وتدوم رئاسته، ويحسن فيمن هو لديه طاعته مع ضرع من الدنيا بأسبابنا يحلبه، وحطام منها عن قليل يتركه، وحدثته نفسه بأنه مصيب في فعله بما سننه للأدميين، ومقاطعته لرب العالمين، طلب للمحق ربنا يقول به: راحت عني إمامته، ودخلني الشك في قيامه، وقبل ذلك دعوتكم إليه وحصرتكم عليه؛ لما كان عندي مستحقاً لها، ولما شككت في أمره وتعقبت شأنه لم أرد أن أهلككم، ولا أن أورطكم فيما إليه دعوتكم!.

وإنما ذلك باطل من قوله، وغرور غر به نفسه وغيره؛ إذ لم يسع الذي به في هواه، ولم يمكنه من ردائه فيفترش به الناس فرشا، وتجلس به أموالهم جلسا، فأراد أن يكون إمامه طوعاً ليده، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه، يعلوا به الكبار، ويقهر الصغار، فلما أن اعجزه منا مناه، ولم نجبه إلى رداه، ولا المساعدة إلى هواه، وخشي أن يفتضح عند من عاناه بتخلفه عما إليه دعاه، أعرض عند ذلك، وعبس وبسر، وأدبر وأستكبر، فأصبح بجهله وعمى قلبه يهدم ما بنى ويغيب [ما دنى][3]، ويكفر بما آمن فكان كما قال الله سبحانه: ﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾[الحشر:٢]، فلا من الله سبحانه استحى، ولا ممن دعا إلى الحق اتقى، بل نسب كل من هو بينهم إلى الجهل والعمى، وقلة التمييز والهدى، فجعلهم كالدواب يدهيهم إذا شاء، ويصلهم إذا شاء، لا يرى أن معه مثله، ولا أن في البلد عدله، فهم عنده لا يؤمنون إلا بإيمانه، ولا يتركون إلا بتركه، فهو كما قال الله

---

(١) مدن الجبل: شالوس، كلاّر، وسعيدآباذ، الرويان، تمار، شرّز، دهستان، الأرز، شروين، نداد هرمز، وغيرها.

(٢) مدن السهل: آمل، مامطير، ويمة، سارية، طميشه، وغيرها.

(٣) ليست واضحة لعلها المثبته.

سبحانه: ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا [يَفْتَرُونَ]**[1]﴾[العنكبوت:١٣].

[قواعد حل النزاع بين الدعاة]:

فأي مصيبة أعظم على قوم هم دعوة المحقين منذ أكثر من سبعين سنة القاسم والهادي إلى الحق صلوات الله عليهما، ونحن إلى الساعة ندعوهم، ليس فيهم من يهدي نفسه ويميز ضلالة غيره حتى لا يُدخله غيره في ضلاله إذا شاء ولا يخرجه من حق إذا شاء، فيحتمي على دينه ويأنف على مذهبه ويصلب على حقه، ولا ينتكص على عقبه، ولا يخضع لمن يريد الترؤس به والارتفاع بسببه، فقد غركم - أرشدكم الله - الصبيان، ومن لا فضل فيه، وصرتم مقلدة متبعين بلا نظر ولا تمييز؛ لأن من أصل الدين عبث التقليد إلا المؤمنين من الأئمة الراشدين الذين وجب تقليدهم بالعلم بالكتاب وقيامهم بالحق والصواب، أو مثل أوليائهم الأولين المستقيمين على دعوة الأولين والأخرين، فميزوا الذي دخلتم فيه أولاً فإن كان حقاً فالزموه وإن كان باطلاً فارفضوه، وانظروا الذي خرجتم منه آخراً فإن كان حقاً فارجعوا إليه وإن كان باطلاً فلا تمالوا عليه؛ فإن أهل الإيمان والإسلام لا يقلدون أديانهم من إذا اغضبه كتاب أو طلب اهواء لا يصلح للأئمة فعله عتب وقطب، وأراد أن يتبع قوله، ويسلك سبيله، بل الواجب عليكم وعلى كل مسلم إذا رأيتم من غير دينه أن تقصدوه بالعداوة، وسفك الدم إلا أن يرجع إلى الله صاغرا وإلى ما خرج منه داخراً، ويبين لكم الحجة، فإن جاءكم ببرهان يشهد عليه العلماء وتثبت به البينة وتنكشف الحجة صدقتم قوله حينئذ، فأما قبل ذلك فلا يجوز لكم تصديقه حتى تسألوه كشف ما قال وادعا على من هو حجة بينكم وبين الله سبحانه وبطاعته تنجون وبمعصيته تهلكون، وتسألونه إيضاح الحجة بالمشافهة لمن يطعن عليه، والمناظرة له، ثم تصدرون معه خياركم من يكون حجة له وعليه، فإن ظهرت حجته صدقتموه في قوله وتبرأتم مما تبرأ منه، وإن علت حجتنا عليه، وقهرنا بالحق باطله، وبان ظلمه وجهله استتبتموه، فإن تاب وإلا تبرأتم إلى الله سبحانه منه، فإن اعل ببعد السفر لما يريد من كذبه وتحقيق باطله، كتبت حججه ووجهتم بها مع ثقة يوصلها ويأخذ منا جوابها، فإن قهر كنتم على بينة وحجة وعذر عند الله سبحانه، وإن قهرته الحجج وذلك

---

(١) مكتوب: يعملون.

الذي لا شك فيه الحقتموه بدينه، وعرفتم فعله لأن إن كان غضبه لله عز وجل أو فيما يرضي الله من حلال أو حرام أو شريعة أو إسلام فالواجب عليكم وعليه كشف ذلك والمناظرة حتى يستبين خبره فتحيوا على بينة وتموتوا على بينة، وإن كان ذلك لنفسه حتى يعلوا على أصحابه ويستحكم له الرئاسة فيمن هو معه، وعتبه هو المواساة منا بينكم وبينه وقلة اتباعنا له وميلنا إلى ما يكون عونا له على ما يريد من زخرف دنياه، علمتم أنه ظالم في دعواه لا علم معه فينها، ولا حقيقة بعين يميز به ما يرجوه أو يخشاه، مثل البهيمة راكب ردعه وهواه، فيا له الويل من كتاب منشور يلقاه، وتعريف عمل قد أحصي وحفظ يفجأه، ثم النار مصيره ومأواه إذ رمانا بأثمه وخطاياه وما قرف به علانيته ونجواه فهو كما قال الله سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾[النساء:١١٢].

[الحذر من دعاة السوء]:

فحذروا – رحمكم الله – في الحذر منه ما زلتم في مهلة من الأعمار، والأعمال مقبولة والتوبة مبسوطة، والأوزار محطوطة، والآجال مخطوطة، قبل نزول الأسقام التي تصبي، والموت الذي يفني، واعملوا عمل من لا ينفعه والد ولا ولد، ولا قريب ولا حميم، ولا يغرنكم من لا ينفعكم في الدنيا، فكيف ينفعكم في الأخرة، واحذروا ان تحتجوا غداً بحجة الظالمين فتكونوا عند الله سبحانه من الخاسرين، ويلزمكم ما لزم المخطئين حين قالوا: ﴿**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾[الأحزاب:٦٨]، وقال عز وجل: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[الشعراء]، والسليم فهو السالم من الذنوب في يوم الدين.

[دواعي الأسف على من انقلب]:

وبالله ذا الأيادي والإحسان، والفضل والامتنان، ما هذا من آسفي على من ارتد عن دينه، وغضب على ربه وهدم ما بنا وخرب ما أنشأ، وكيف يكون ذلك والله سبحانه يقول: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا**

عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢]، ولكن حركني على ذكر عوار من ارتد عن دينه وأراد أن يهلك المسلمين معه قول الله عز وجل: **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[الذاريات:٥٥].

فأذكرتني الرحمة لمن يعز ويهلك ممن يظن إنما قال له من قد أعمى الله قلبه هو حق ونجاة، فيهلك بهلاكه وبما يزينه عنده من قد ارتد عن دينه، فأردت إقامة الحجة والتحذير لأهل الدعوة بما حذرهم الله سبحانه من إتباع الطاغين المترفين، الذين جعلوا الطاعة لله سبحانه وللأئمة مع موافقتهم، والخروج من الدين إذا لم يمكنهم الإمام ارادتهم، فهم كما قال الله سبحانه: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾**[الحج:١١]، وقول الله سبحانه: **﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾**[البقرة:٢٠٦].

[مواصفات القدوة]:

فالله الله عباد الله في أنفسكم، لا تولوا أمر دينكم أضعفكم رأياً، وأخسّكم علماً، وأصغركم سناً؛ فتنقلبوا خائبين خاسرين، ولجهنم من الساكنين، وثواب الله سبحانه من المحرومين، وتكونوا ممن ذكر الله سبحانه حيث يقول: **﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾**[غافر:٤٧].

[دواعي الاهتمام]:

وكأني بمن قد غركم يوم القيامة يقول لكم كما قال الشيطان لحزبه ومن أطاعه: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[إبراهيم:٢٢]، ولولا حفظكم وحياطتكم والتحنن عليكم، والحجة التي وجبت لله سبحانه في رقبتي لجميع أهل الإسلام؛ لكان يسعني ترككم لما قد بدا من جفائكم، وتغير أحوالكم، وانكسار نياتكم،

ورجوعكم عما كنتم عليه في قديم أمركم، والرغبة والمودة والاهتمام بالدولة والمعاضدة لكل من يدين الدعوة، ويقوي أصحابها، ويسعى في إصلاح أربابها إلى اتباع من يرديكم ولا يهديكم، وبالله لو اتبعتم مشائخكم السابقين، والعلماء المنصفين المتمسكين بل الأولين منا والأخرين، أهل الوفاء والحياء والنصفة والولاء والبناة الذين لم يغيروا دينهم، ولم يملهم عنا سخطهم؛ لأوردوكم منهلاً صافياً، وطريقاً هادياً، ولكنكم تركتم أصولكم الراسخة، واتبعتم من فروعكم ما لم يثبت على اصله، ولم يسبق على نسخه، فتركتم أولئك وراء ظهوركم، واتبعتم من لم يصح لمن مضى بل اعقب الأول والثاني.

[سبب الإعراض عن المعارض]:

ونحن من بعد ذلك وبالله لو لا إنه كان حضر[1] إلى الإمام صلوات الله عليه وإليّ فتاب وأناب وأعترف بذنوبه وقبلنا ذلك منه، لذكرت من عواره وفضائحه، وما كان الهادي إلى الحق والإمام صلوات الله عليهما يقولان فيه[2]، وما أنا الأن أقول فيه ما يحذره به كل من عاشرة، ولكن اعرضت عن ذلك لما كان اعطى من نفسه، وما ظنناه من صحة رجوعه عن كل أمر غمنا فأماته، فله دينه وعلمه واعجابه بنفسه وكثرة رغبته في الدنيا وزهده في الأخرة.

[حجة وإعذار]:

فاستيقظوا - رحمكم الله - من رقدتكم، وانتبهوا من وسنتكم، وعودوا إلى طاعة الله سبحانه خالقكم، وطاعة أئمتكم، وكبرائكم المطيعين لهم، المتعلقين بعراهم، قبل أو يؤخذ باعظامكم وينزل الموت بساحتكم، ثم لا ينفعكم ولا يقبل منكم الاعتذار، وقبل ﴿**يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾[القلم:٤٢]، وقد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون، فقد نصحت لكم بجهدي، وطاقتي فإن تقبلوا النصيحة ترشدوا، وإن تختاروا العمى على الهدى فما أقول إلا كما قال نبي الله صلى الله عليه: ﴿**لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾[الأعراف:٧٩]، وهذا حجة مني

---

(١) لم أجد معلومات فيما لدي عن هذا المعارض وقدومه إلى الأئمة، ولا بد أنه من ولد الناصر الأطروش أو ولد زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني.

(٢) نقل الطبري عن الإمام الهادي عليه السلام أنه قال: «ما منزلة الحسن بن زيد ومحمد بن زيد الحسنيين أميري طبرستان عند الله إلاّ كمنزلة سابكين وكوبكين عبدين لبني العباس مملوكين من تحت أيديهم، بل هما أعظم جرماً عند الله لقرابتهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» الأصول خ.

اوقفكم لها غداً عند الله سبحانه لأن لا يكون لكم عليّ حجة، وإبلاغ في معذرة ورحمة لكم وحسن نظر يحمد عاقبته، فكان هذا لكم لا لي شفقة مني عليكم، وخوفاً أن تزل قدم بعد ثبوتها؛ لأنكم المأمورون بطاعتي ومتابعتي على أمري، ولست المأمور بطاعتكم ولا الكون عند رأيكم.

[الداعي لكتابة هذا الكتاب]:

والذي حداني على إلقاء هذا الكتاب والإذاعة له أني حاذرت على الدين أن يدرس، وعلى القرآن أن يطمس، وعلى الزكوات أن تفرس، وعلى حبل هذه الأمة أن يهرس، وعلى المؤمن التقي أن يوهس، وعلى الأحكام أن تدلس، وعلى السنن الطاهرة أن تحبس، وعلى الفجار الظلمة أن تنفس، وعلى المحصنات أن تنغص، وعلى الأرامل أن تده، وعلى الأيتام أن يقسرو[ا]، وعلى الضعيف أن يقهر، فرأيت عند ذلك تذكير الإخوان، وموعظة الأولياء والأعوان، وتنبيه أهل هذا الشأن من القاصي والدان، وتقريع أهل الخذلان والمائلين إلى التواني ومعاتبة من يرجع عن دينه إلى الرحمن، فإني لا أجعل في حل من خذلني، ولا في فسحة من ثبط عني، ولا في راحة من قبل فيّ قول كاذب أو طعن حاذر أو غيب غائب، وخصيمه دوني غداً محمد ابن عبدالله النبي المصطفى صلوات الله عليه وعلى أهل بيته، صاحب الشفاعة واللواء والمقام المحمود دون الورى والشاهد على الامة يوم الجزاء.

فهذا قولي وديني ومذهبي واعتقادي إليه ادعوا، وعليه أوالي، وفيه اناصب، وعليه أحازب، وفيه ارغب؛ لتقوم للإسلام دولة، ويكون للحق طولة، أو تدور على أعداء الله سبحانه جولة، فأظهر عدلي، وتعرف سيرتي، وتحمد آثاري، واقتدي بآبائي واجدادي صوات الله عليهم، واتقرب بذلك إلى خالقي، واقدمه ليوم بعثي ومحذور حسابي، ومخووف عقابي ومرجو ثوابي فهذا الذي قصدت واليه عمدت وبه عرفت ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[الأنفال:٤٢].

[نجاة الأمة مسؤولية أهل البيت]:

ولولا حذري عليكم ورغبتي في نجاتكم وشفقتي من هلاككم ونصيحتي لكم - إذ نحن أهل بيت الرحمة وقادة الخير والدعاة إلى النجاة - ما كتبت بما كتبت ولا أوسعت الشرح فيه، وما بي فيه إلا حسن النظر لكم لا لنفسي، لأي لا أسأل أحداً منكم لنفسي مالاً، ولا شيئاً يعطيني ولا أريد منه، بل أنا عن ذلك غني، وبنعمة الله سبحانه مكتفي، ولا أريد إلا نجاتكم وعند الله سبحانه من النار خلاصكم، وفي ذلك أقول:

لــولا اهتمــامي بكــم مــا بــت مرتفعــاً ... أدعــى النجــوم تقلــب غــير محتــل
أخـــاف تقصـــيركم في أمـــر ديـــنكم ... ليلـــي وأصـــبح عـــنكم غـــير مســـتعل
لمـــا تقلـــدت مـــنكم حمـــل عبـــوكم ... والحبـــل أصـــبح مـــنكم غـــير منبتـــل
ولم تكونـــوا علـــى حـــال أســـر بهـــا ... ولم تصـــيروا مـــن التقـــوى علـــى أمـــل
وإنـــني مـــنكم امـــرأ رقـــت لـــه ... كوالـــد حـــدب يخشـــى مـــن الزلـــل
علـــى بنيـــه إذا تاقـــت نفوســـهم ... إلى هـــوى غـــير محمـــود مـــن العمـــل
وخـــاف ان يهلكـــوا طـــراً بـــأجمعهم ... ويصـــبحوا بـــين مهضـــوم ومقتـــل
وبـــين رام بأســـهم ولا وتـــر وبـــين ... غمـــاً ومـــأخوذ علـــى مهـــل
وبـــين مشـــتغل أمســـى علـــى جـــرف ... هـــار بـــلا عـــدة مـــن هـــوة الخطـــل
لا انـــني خفـــت مـــن دهـــري حوادثـــه ... ولا البصـــائر جـــارت بي إلى ميـــل
لكـــن حـــذاري علـــيكم أن تـــورطكم ... دنيـــاكم فتضـــلوا أرشـــد الســـبل

باب المكاتبة

وبعد - أرشدكم الله وهداكم - فما أظن - والله أعلم - إلا أن هذا الكتاب آخر كتاب أكتبه إليكم، وذلك على أحد وجهين ليس منهما بد:

[الأول]: إما الموت المقتحم، والآجل المنخرم القاطع دون كل عمل، والحائل دون كل أمل، فنستريح وتستريحون، فتحمدون رأيكم أو تذمون إن بقيتم بعدنا في حيرة وعماية تعمهون، وتطلبون إمام هدى يقوم مقامنا فلا تجدون، كسيرتكم في الأئمة الماضين، وكسيرتكم على

السالفين، وتلهفكم على المفقودين، وتمنيكم لقائم حق من الخالفين، حتى إذا وجدتم إماماً سرتم فيه كسيرتكم في الأول، فإن فقد قائم جزعتم عليه، وإن قام آخر لم تقبلوا إليه، فمثلكم في ذلك كمثل المجاور لعين ماء عذبه بين مياه ملحة أجنة اتكل على كثرة المياه حولها وطنبها من جوهرها، ففرط في عمارتها وقصر في الاستكثار من صفوها، فبين ما هو كذلك إذ غاضت العين فلم يرعه غضها، ولا انقطاع فيضها، ولا ما حدث عليه من جليل الحادث بعدمها، حتى جل به العطش الشديد فورد العيون الملحة الأجنة عيناً عيناً فوجدها لا تطعم لشارب، ولا تسوغ لراغب، فتعّرف فضل العين التي ضيع وآمن من الحوادث التي تقع، فآضت معرفته ندامة وحسرة، وتقصيره وبالاً وعبرة وتلدداً وحيرة، وطفق يستنبط عيناً يندل فيها ماله وأعوانه ومجهوده، وخلا به وبر ومها بالأكر الجليل، والتقيؤ الثقيل الذي لو فعل عُشره في عمارة العين الأولى أفلح وانجح، وأمن سوء عاقبة ما وقع فيه، فما ظنكم بمن أصابه هذا المثل أيعيش على غير ماء صادياً أم يرد بعطشه العيون المكروهة التي ذكرنا؟

فلا بد لهذا من أن يموت عطشاً، ويضطره الصيام إلى ورود العيون المتلفة التي لا تروي من ظمأ، ولا تهدي من عمأ، ولا تؤمن من ردى، فهذا جزاء من أساء الاختيار، وركن التسويف كما قال الشاعر:

كـــم أهلـــك التســـويف مـــن أمـــل لتوبـــــــة لـــــــيس ملاقيهـــــــا
لقولـــــه اليـــــوم وأمـــــا غـــــداً أفعـــــــل والتقصـــــير يفنيهـــــا
ينـــــــوي ولا يفعـــــــل مـــــــن جهلـــه وخلفـــه للمـــوت حاديهـــا

ولأن تم أمر هذا الخلق على إعراضهم عن نصرة الدين، والركون إلى الأموال والأهلين؛ لأعتزلن في رأس جبل وحدي منفرداً لعبادة ربي حتى يأتيني اليقين؛ إذ قام عذري بخذلان من خذلني ورغب بنفسه وماله عني.

وأما الخصلة الثانية: التي ذكرتها في أول هذا الشرح: فهو إن لم يكن منكم توبة ورجعة واجتماع كلمة على الطاعة بأمر خلاف الأول الذي عتبنا، والسبب الذي لم يرضنا، فيه جد وتشمير وإخلاص لله سبحانه وتطهير، وترك للتكابر، والتحاسد، والتنافر، والتباعد،

والتنافس، والتراؤس، والتخاذل، والتواكل، وقيام بالحق، وتناصر عليه، وإخلاص في الأمر وتعاون فيه، وتقيمون الحق جميعاً، وتلقون العدو معاً، وتكونون في الدنيا أعزاء و في الأخرة كما قال الله سبحانه: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾[الحجرات:٤٨]، لا يحتاج بعد ذلك إلى معاتبة في تقصير ولا مراجعة في تشمير، لم أكاتبكم ابداً، ولم أوصل منكم احداً، وكان صرم الأمر من قِبلكم وتغيره من جهتكم وبدؤه من ناحيتكم؛ لأنا نعاملكم على طاعة الله سبحانه، وعلى أن تنجوا بنا ونكون نحن وأنتم إخوانا مترافقين، وشيعة على الحق المبين، حتى ننال بذلك جوار محمد صلى الله عليه في جنان النعيم والخلد المقيم، فأما لدنيا نطلبها منكم أو من غيركم فهي عندنا أقل وأحقر وأذل وأصغر من أن نجعلها لنا هما وشأنا، أو نطلق فيها لساناً أو نمد إليها بناناً، والله ما إذن رضيت أن أطبع بها حسي فكيف ديني، وإذا لم تجر الأمور علاما يرضي الله عز وجل ويقوم به دينه فلا حاجة لنا في مواصلتكم، ولا رغبة في اجابتكم.

أسئل الله أن يوفقكم للرشاد إنه كريم ذو أياد، وكونوا – رحمكم الله – ممن إذا وعظ اتعظ، وإذا نبه استيقظ، وإذا استرعى حفظ، وإذا ذُكر ذكر، وإذا زجر ازدجر، واقبلوا مواعظنا على ألسنة مشائخكم، ولا يحملنكم التكبر على أن تعرضوا عن استماع كتبنا منهم، فقد جعلناهم سبباً لتبليغ وذريعة إلى قبول الخير، فأرغبوا رحمكم الله فيما ينجيكم، وتعلقوا بمن يهديكم فـ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨].

باب الوداع

هذا – رحمكم الله – كتاب من زهد في الدنيا، وخاف الرب الأعلى، ورغب فيما يبقى فأثره على ما يفنى، المفرد من الإخوان، والعاري من الأعوان، والمحالف للأحزان، والمبتلى للإمتحان، قرين التفكير والأشجان، خدين الوجد من أهل الإيمان، والمحارب على دعاية إلى الرحمن، الدائم الحسرة، والطويل العبرة، والقليل النصرة، والمنبتل من الأسرة، والرهين للعسرة، الذي دعا فلم يتبع، وهتف فلم يسمع، وأمر بالرشاد فلم يطع، وأهاب إلى القرآن فلم

يشفع، وسأل النصرة فلم يتابع، الذي ظُلم مقامه، وأزدري وطعن في إمامته وأوذي، وتخلف عنه فنسي، وتووكل في إجابته فعصي، وضعف حقه فقلي، وجرع الغيظ من أمة جدة ودهي، الذي لم تقد عينه ساعة من الساعات، ولم ينفك من الزلازل المعضلات، والمحن النازلات، والعوارض المتتابعات، المقتدي بالهداة، والداعي إلى النجاة، والمنغص بالحياة، والمتمني للوفاة، والمعدم من الكفاة، جليل الثوائب، وعدي العجائب، وقليل المصاحب، وكثير المواثب، الذي لم يتبع دينه فيعين، ولم يرض الخلق به فيعاون، ولم يسامح فيه فيكاون، ولم يسلمه لهم فيحاسن، ولم يبق بهم إن غالن، أنصاره إن داهن، واعداؤه إن باين، فهو بين هذا الخلق غريب مضطهد، وفريد لم يعضد، ووحيد لم يمدد، ومتروك لم يسعد، فهو كالطائر بلا جناح، أو الملاقي بلا سلاح، أو الكادح بلا نجاح، يومه غرار، وحلواته فكار، وأيامه طوال لكثرة ما يعانيه من الغموم والأهوال، قد ضاقت عليه الأقطار، وأسلبته الأنظار، وناصبه الفجار، وانقرضت عنه الأخيار، فزفراته دائمة، وعبراته ساجمة، وشيعته صارمة، وعداته قائمة، وعمومه متراكمة، الذي لم تواته الدنيا فيرض عبيدها، ويجبر بالاستحقاق رشيدها، ويؤوي بالرأفة والرحمة طريدها، ويقمع بسيف الحق عنيدها، الذي فارق أهل الدنيا، وباين أهل الردى، ولم يرض السخفاء، ولا معاشرة أهل الخطأ، ورغب في الرجحاء، وأعوزه أهل الوفاء، وثكل الأتقياء، وأُمتحن بالأشقياء، فصفو الشراب عليه متكدر، ونعيم الدنيا عليه متغير، لا تروق عينه منها منظر، ولا يفرح غمه منها شيء يذهب، ولا يصادف فيها خليلاً إليه يركن ولا به يستر، الذي نقصت أيامه، وأحم حمامه، ودنت الدنيا رحلته، وأوشكت نقلته، وتضرمت مدته، وانقطعت من الدنيا رغبته، وأصبح على سفر إلى الأخرة تاركاً للدنيا الفانية، قد بلغ عدده وانتهى أمده، متوقعاً لداعي ربه والشخوص إلى خالقه، فما بقي فرع قد نخرت أرومته، واستؤصلت جرثومته، ورأى ما حل بمن كان قبله من الأسلاف المطهرين الذين حل بهم النفس قد رجوى من الدنيا مُزعجين، وخلوا الأطفال والأهلين، جذلين بما قدموا، غير نادمين على ما خلفوا، وبقيت بعدهم فرداً وحيداً، لا مؤنس لي اصبوا إليه، ولا معتمد أميل عليه، فما أصبح في هذه الدنيا شيء أحب إلي من اللحوق بهم، والمتبوأ لمثواهم، والفراق لمن عيني تراه، وإني لموقن أن راحتي من هذا الخلق قد قربت، وإن رحلتي منهم قد دنت، وإن منيتي قد أشرفت، وإن فرقتي لهم قد أطلت، فكأني قد صرت إلى ربي، ووفدت إلى الأرحم

بي، ونزلت نحو المحسن إلي، والمتعطف بجوده عليّ، الذي غذاني بنعمته، وهداني إلى صراطه، وجعلني من ذرية نبيه وحباني بولاته، وجعلني من الدعاة إليه، والقومة بتوحيده، والعارفين بعدله، والتالين لكتابه، والحجج على من خالفه.

[حال المقصرين بعد الوفاة]:

فكأني بعد انقضاء مدتي، وخلوا الدنيا مني، وبعث شخصي، ومصيري تحت الثرى، ورحيلي إلى البلاء، وقد ندم علي من قصر فيّ، وعظمت حسرته وانكسف، واشتد كربه، وتتابعت زفراته؛ إذ لا عين مني تحس، ولا أثر مني يوجس، ولا قرب مني يؤنس، وقد استضهد بعدي من كنت بدفاعي عنه أحرس، فذل حدّه، وقل رفدّه، وحقر مقامه، ووسم بسمة الذل بعد العزّ، ووطئ بالأقدام، ومدت عليه الألسن، ونبز بالألقاب، وصار تابعاً للأغوياء قد قهر، ومبعداً عن حقه قد دحر، وشهيد عليه قد استؤثر، لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر فذلك جميع الخالين قد جسر وقد ذهب عزه، وزال الحبل الذي كان يستند إليه، وانقطع النهر الذي كان يرتويه، وانفك الحبل الذي كان يتشبث بعروته، ويعتصم بوثقه، وانفسخ الذي كان يكتن تحته، وكسف البدر الذي كان يستضيء به، وجار السبيل الذي كان يسلكه، وانكسر السيف الذي كان يسطوا به، وابيح الحماء الذي كان يسيم فيه، وانهد الحصن الذي كان يلجأ إليه، وخمد المنار الذي كان يهتدى به، وانقطع الشرف الذي كان يفتخر به، وانبتل السبب الذي كان يمت به، وانقصم الرمح الذي كان يعز بسنائه، وخر الطود الذي كان يلوذ باركانه ويتقى في أكنانه ويطول على الأضداد بمكانه، ودرس العلم والأحكام الذي كان إليه يرحل، والمجد الذي كان إليه يقصد، وخربت الدار التي كان عليها المعول، وزالت الدولة التي كان المؤمن يأمل وعليها يتكل، وعطل المنبر الذي كان بما يتلا عليه كل مؤمن يستر، فحينئذ تُفرقون شيعاً، وتتخذون خولا، وأموالكم دولا، كل يخبط في عشواء جاهلية، وظلمة عمياء، ومجر هد بليه، قد اظلتكم الفتن، ونزلت بعقوتكم المحن، واخذتم على مداهيكم بالإحن، والأكثر يقمع الأقل، والأعز يهضم الأذل، فلا مهاجر يراعم إليه قاصد، ولا داعي يحث إليه عامد، ولا كلا دين يظفر به رائد، ولا موضع أمن يلجأ إليه عامد ويخاف فيه معاند، قد اظلمت عليكم الأرض بحنادس مطلخم غياهبها، وضاقت عليكم بما رحبت متى دلج مذاهبها، وأمسعت وأعوزت مناكب مكاسبها، ونكدت وعسرت عليكم

مطار مطالبها، وتضايقت وعميت عليكم قبح الفجاج من جوانبها، ورفعت عنكم البركات والعطايا من رغابها، فهنالك تكونون بين قن مستعبد، ومأكول مضطهد، ومدموع متهدد، ومستأثر عليه مبعد، ومقتول ليس له ثائر، ومظلوم ليس لظلامته ناصر، ومكسور ليس لهيضه جابر، ومغلوب على حقه ليس له مؤازر، ومدحوراً على أنفه عاثر، وكاظم لا يبوح بدينه يخافت به خوفاً من قرينه، وينفرد بحسرته يائساً من معينه، فعندها يتأوه المتلهف، ويتحسر المستضعف، ويتمنى الموت الذي كان عنا يتخلف؛ إذ فاجأه من الأمر ما لا يعرف، وقُهر صاغراً فلم ينكف، وسيس سياسة ذميمة غير الذي كان يألف، وحكم عليه الأذل المترف، والجائر الذي لا ينصف، ولا عن محارم الله يرجع ولا يتوقف، هذا في الدنيا معجل مع وعيد النار المؤجل، لمن فرط في الدين، وجانب عن المحقين، وما ربك بظلام للعبيد.

[حال المؤمنين بعد الوفاة]:

وكأني بعد موتي بالمؤمن الحزين، المقهور المهين، الدائم الأنين؛ لما يرى من خمول الدين، وفرح الفاسقين، وعتوا الظالمين، وأمنهم من سطوات الحاكمين، ومكافحة المحقين، وإقامة الحدود على المنتهكين(١)، والأخذ على أيدي المفسدين، لا قوة معه فيسطوا بها، ولا فئة حق يلجأ إليها، ولا دعوة صدق يجيب صاحبها، فيموت كمداً، ويبقى جزعاً، وتفت كبده قطعاً بعد أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، مستطيلاً على الظالمين بحياتي، وشديد الظهر بدولتي.

[حال الشامتين بعد الوفاة]:

وكأني بالشامت عليّ، والجذلان بموتي، والفرح بوفاتي، والمسرور بذهابي، والساقط عن ظهره ثقل دولتي، يبشر بعضهم بعضاً، ويتلاقون جماعة وشتى؛ ليتمالوا على اطفاء ما كان قد زهر بأسبابي من نور الله، وإذاعة كتابه ونشر عدله، ويتداعون إلى إحياء المنكر الذي بسيفي قد دثر، وبسوطي قد قهر؛ ليخلوا بلذاتهم وخمورهم وشهواتهم، وانتهاك حرمات الله، وقتل أولياء الله، والفساد في أرضه بعد إصلاحها؛ إذ كان خوفهم للمخلوق لا للخالق، والأخذ بالعظم الأدنى لا للعذاب اللاحق، فكأني بهم في ذلك السرور، والشماتة والحبور، واللهو والغرور، قد حل بهم من الله جل ثناؤه أفضع الأمور، وأشنع المذكور، وأسرع المقدور، وأحتف المعذور، وأقبح التغيير، وأعجل التدمير؛ إذ شمتوا على أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة،

---

(١) مكتوب: المهشكين.

ومختلف الملائكة، ومنزل الوحي، والذين هم صفوة الله جلَّ ثناؤه، ونجوم أرضه وأمان أهلها، الذين بهم تعمر الدنيا والأخرة ويستقيم الدين، فيكون أعداء الله الشامتون كما قال الله عز وجل: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾[الإسراء:٧٦]، وقوله عز وجل: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾[النمل:٥٢]، وقال: ﴿**فَتِلْكَ [مَسَاكِنُهُمْ]لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾[القصص:٥٨].

[وداع ودعاء للجميع]:

هذا كتاب وداع مني للفريقين، وإشهاد لله جل ثناؤه بإثباتي لحجته على الحزبين، ووصيتي إلى من بلغته من المتعبدين، اللّهم إني أستخلفك على أوليائك المؤمنين، وأهل طاعتك المسلمين، وأنصار دينك المحقين، وأهل عدلك وتوحيدك المصححين، والقولة بوعدك ووعيدك المصدقين، والقافين لما جاء به رسولك المقتدين، والقائلين بفضل أهل بيتك المطهرين من على الأرض منهم ومن يلحق إلى يوم الدين، اللّهم فأنت خليفتي على شيعتي وأوليائي وأهل بيتي ومن تبعني من الصالحين، اللّهم فكاف عني من عاضدني، ووازرني، وناصرني، وعاونني، وشايعني على إحياء دينك، والإصلاح في أرضك، والإقامة لحدودك وأحكامك، وإظهار كتابك، وأن تكون كلمتك العليا وكلمة من عاندك السفلى، اللّهم فكاف عني الجميع كلاً بقسطه على الصغير، والكبير، والنفير، والفتيل، والقطمير، والخطوة، والدعوة، والخطة، واللفظة، والذب باليد واللسان، والمشايعة بالفعل والجنان، وجميع ما أتوه من الإحسان، من حفظ غيب، ورد غيبة، أو قمع طاعن أو خطأ متأول أو كيد جاهل أو تهمة متقول.

اللّهم فكافهم عني عند تفرق الأملاء، وتحازب الحلفاء [وتمالي الأعداء][1]، وظهور أهل الخطأ، بالسلامة في أديانهم، والحقن لدمائهم، والصيانة لنعمائهم، والستر لمن تحت أيديهم من أزواجهم وذرياتهم، والإجماع في كلمتهم، والألفة بين قلوبهم، ودفع جميع المكروهات عن انفسهم، حتى يلحقوا بك، وبنبيك عليه السلام على الوفاء لك بما قلدتهم والشكر لأنعمك

(١) مضاف على الأصل.

عليهم، ويفوزوا عندك في جنان النعيم والخلد المقيم في جوار نبيك والصفوة من عبادك، اللّهم وأخلف على أعدائك وأعداء رسولك الشامتين بزوالي، والجذلين بانتقالي بجوائح النقم، وطوارئ المصائب، وملظات الحرائب، وتشتت الشمل، وافتراق الكلمة، وارتفاع النعمة، وسفك الدماء، ومحق الأموال، وتغير الأحوال، وقوارع الزلزال، وتنغيص الحياة، اللّهم فألبسهم شيعاً، وأذق بعضهم بأس بعض، وأحصهم عددا، وافنهم بددا، وأجعلهم طرائق قددا، وبدلهم بي من يسومهم سوم الذل والهوان، من إركاب العنف، وإرغام الأنف، والإرهاق عسراً، والملكة قهراً، من الأزمات المجدبة، والسنين المتتابعة، والشصائب الجارية، والقوارع المتراكبة، ولا ترهم في دهرهم ساعة سرور، ولا غبطة حبور، ولا دفعاً لمحذور؛ كما عصوا أهل طاعتك، والهداة إلى دينك، والدعاة إلى حقك من ذرية نبيك صلى الله عليه الكريم عليك، ولم يفوا بعهده، ولم يشكروا مقامه، ولا النعمة في دولته التي خفت دماؤهم، ووفرت أموالهم، وسلكت سبلهم، وحرست طراقهم، اللّهم فأجعل الوقت ذي يأملون فيه الراحة مني دماراً عليهم، وحسرة في دنياهم ووبالاً في أنفسهم وأموالهم، يا قاصم الحبارين ويا مهلك المعتدين، اللّهم وتوفني مسلماً، وألحقني بالصالحين، وأجعلني يوم الفزع الأكبر من الأمنين مع مرافقة النبيين والشهداء والصالحين إنك أرحم الراحمين.

[الخاتمة]:

اللّهم إني أشهدك بلساني ناطقاً، وبقلبي معتقداً، وبتوحيدك مخلصاً، وبعرفاني مقراً، وباستشهادي مستدلاً، وبقيام الحجة علي مستعبداً، وبإحداثي مخترعاً، وبإخراجي من العدم مبتدعاً، إنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، البديء قبل الإنشاء، والأخر بعد فناء الأشياء، الغني عما خلقت، والوارث لما أحدثت، والعدل فيما حكمت، والصادق فيما وعدت، والرؤف بمن ملكت، ليس كمثلك رب يعبد، ولا مقصود إليه يصمد، ولا شبيه يوجد، بعدت عن مساواة المخلوقين، فبنت، وجللت عن صفة الواصفين فعظمت، وأنظرت الراجعين إليك فحلمت، لم تولد فتحدث، ولم تلد فتورث، عززت عن المشعرات فلم ينظمك الأوقات، ولم تلزمك الجهات، ولم تجر عليك الساعات، فأنت الله بخلاف ما تقع عليه الأوهام، وتمثل من الأجسام أو تتكيف من الأعراض والأجرام، سبحانك لا إله إلا أنت تعاليت.

الفهرس